رواية
طائرة
3:15
فجراً
عثمان عابد

رقش

@N_BHS2

طائرة ٣:١٥ فجرًا

ح) مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٤٦هـ

عابد، عثمان
طائرة ١٥ : ٣ فجرًا / عثمان عابد - ط١ - الدمام، ١٤٤٦هـ
٢٢٤ ص ؛ ١٤ سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١١٩٤٨
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٩٩-٤٦-٧

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

مسؤول النشر :
للتواصل
0597777444

الموقع الإلكتروني :
Www.Adab-Book.Com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@ServicesBook1
مركز الأدب العربي
adabarabic7
aladabce@gmail.com

تنفيذ الطباعة
مطبعة الكتاب العربي - الرياض

المملكة العربية السعودية- الدمام
لطلب إصدارات مركز الأدب العربي
00966594447441

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569767989
جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر .

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن
وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر .

طائرة ٣:١٥ فجرًا

عثمان عابد

romiantoma
Othmanauthor

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

جميع أحداث وأماكن هذه الرواية من وحي خيال المؤلف،

وأي ترابط بينها وبين الواقع يعد مصادفة لا أكثر...

بين السماء والأرض

لا أعلمُ كيف ضبطتُ نفسي وقتها ولم أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، وقد فقدتُ الحاجة إلى استخدام الحمام بعد الذي رأيته! الدماءُ تقطُرُ من رقبته وكأنها صنبورٌ تتسربُ منه المياه، وأثرُ الطعنةِ كان ظاهرًا على الجهة اليمنى منها. كان جالسًا على المرحاض كمن سيقضي حاجته، إلا أنه لم ينزع قطعةً من ملابسه التي غرقت بدمائه... ورأسهُ مرفوعٌ للأعلى بعينيه المفتوحتين... اللتين كانتا تصفان مشاعر الرهبة والخوف التي رآها قبل أن يغادر الحياة! لم أتجرأ على لمسِهِ لأتحقق من حياته، لكن منظره وحده كان كافيًا لإخبار الجميع أنه قد شَبِع موتًا... بين السماء والأرض.

أغلقتُ باب الحمام بهدوء بيديّ المرتعشتين، وأنفاسي تتقطع ودقاتُ قلبي تتزايد... وكأني كنتُ أركضُ لأميالٍ طويلة. مشيتُ نحو ممر المقصورة واتكأتُ بذراعيّ على المقعدين بآخر صف، لتلحظني المضيفة التي كانت تمشي نحو مؤخرة الطائرة... حيثُ كان موقع عملها في تلك الرحلة ومقعدها.

تساءلتْ بإنجليزية جيدة مقطّبةً حاجبيها، وقد ارتسم القلق على

ملامحها... واضعةً يدها على كتفي:

«هل أنت بخير؟»

نطقتُ وعيناي المرتعدتان المفتوحتان على مصاريعهما لا تغادرانها للحظة، غائصةً في أعماق عينيها البنيتين:

«(مـ...) (مـــ...) (ماري)، هناك جثةٌ في حمام الطائرة!»

قبل ساعة...

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقش

بسم الله توكلنا على الله

«بسم الله توكلنا على الله، Cabin Crew Take Your Seats»

كنتُ على وشك الاستجابة لنداء كابتن الطائرة – والذي كان يُخبِرُ فيه طاقم المقصورة (مضيفي الطائرة) أن يتخذوا مقاعدهم للإقلاع في وضعية الاستعداد لأي أمرٍ طارئ – قبل أن أتذكر أني راكبٌ في تلك الرحلة، ولستُ من ملاحي الرحلة. رفعتُ صوت السماعات على إحدى أغانيّ المفضلة... (Another Love). وجّهتُ نظري للنافذة لأغوصَ بتفاصيل الطائرة التي تحركت في مدرج الطيران، زائدةً من سرعتها شيئًا فشيئًا حتى شعرتُ بتوديعها لإسفلت الطريق... وعُلوِّها نحو السماء. لطالما أعجبني شعور الإقلاع والهبوط، على النقيض من أولئك الذين يشعرون بالغثيان... أو الخوف والقلق من أن تقع بهم الطائرة وتتحطم لأشلاء.

تنبّهتُ للراكب في المقعد الأمامي وجسده ينتفض بالكامل، أوقفتُ صوت الأغنية وأخرجتُ سماعاتي من أذني لأطمئن عليه... فسمعتُ صوتًا غريبًا يخرج منه لا أستطيع وصفه لكنه ينم عن خوفٍ وقلق... هذا الذي أستطيع قوله.

«هل أنت بخير؟»

قلتُ وأنا أقترب من مقعده، ليتوقف جسده عن الانتفاض ويرفع إبهامه لي دون الالتفات... لم أستغرب خوفه فقد رأيت الكثير من أمثاله بحكم عملي... الكثير من الناس يخشون الإقلاع والهبوط أكثر من الموت بحد ذاته!

عدتُ للاستماع لأغنيتي ومضت بضعُ دقائق حتى استقرت الطائرة في الجو، وانطفأت إضاءة ربط الأحزمة فوق المقعد... وقد كانت تلك إشارتي لاستئناف ما بدأتُهُ قبل الصعود للطائرة. أُضيئت أنوار المقصورة لتسمح للمضيفين بتقديم الوجبات والمشروبات. فتحتُ جهاز (الآيباد) ووضعتُهُ على الطاولة أمامي، في ذلك المقعد الضيق الذي بالكاد وسعني ووسع ساقيّ الطويلتين... لأفتحَ ملف الرواية القادمة (طائفة الشعيبة).

«الكاتب (عثمان عابد)؟»

كنتُ قد خفّضتُ صوت الموسيقى قليلًا في تلك اللحظة، فاستطعتُ سماعَ الصوت الذي قدم من الميسرة... والتفتُّ بابتسامةٍ قائلًا:

«نعم (عثمان)، أهلًا وسهلًا»

أجبتُ والسعادة تغمرني، فلا توجد لحظةٌ أجملَ من تلك التي يلتقي

فيها الكاتب بقارئٍ قدّرَ موهبته... وقرّرَ إعطاء كتبه جزءًا من وقته. أظهرتْ عيناها الصغيرتان اللتان اختبأتا خلفَ النقاب ابتسامتها، وانتظرتُ لتُعرِّفَ عن نفسها وقد نزعتُ السماعات من رأسي... وانتظرتْ بضعَ لحظاتٍ وكأنها تفكّرُ مليًّا في الأمر وتحسبُ عواقبه قبل أن تنطق:

«معك المحامية (مجد)، هل تتذكرني؟»

(مجد)! لم أتوقع تلك المصادفة إطلاقًا، فقد حسبتها إحدى قارئاتي... ولم أتعرف عليها فهي بنقابها منذ عرفتها... وكثيرًا ما يصعُبُ عليّ التمييز عن طريق الأعين. تلك الفتاة المكافحة التي تحدت كل الظروف لتحقق حلمها، ولم يهدأ لها بالٌ حتى وصلت لمبتغاها... مُكافحة... هذا أقل ما يُقال عنها.

«أهلًا (مجد)، ما هذه المصادفة الجميلة؟ ما أخبارك وأخبار المحاماة؟»

انغمسنا في الأحاديثِ الجانبية وتبادل الأخبار والأحوال، لطالما أُعجِبتُ بإصرار تلك الفتاة رغم كل ما واجهت من عقبات... تلك العقبات التي كانت تنهال عليها من كل صوب. كانت مشهورةً في مدينتنا الجبلية الصغيرة، بعد أن بنتْ لها اسمًا بين القانونيين وفي دوائر المحاكم.

«ماذا تحبين أن تشربي سيدتي، نقدم القهوة والشاي وبعض العصيرات»

قاطعَ حديثَنا المضيفة التي توقفت بعربة الضيافة بجوار مقاعدنا، بإنجليزية جيدة وابتسامةٍ شقت وجهها... والتي كانت جزءًا أساسيًّا من وظيفتها كمضيفة... مع المظهر المهندم الرتيب. لحظة لحظة، أعرِفُ هذه المضيفة فقد عملنا عدة رحلات معًا!

«(ماري)، صحيح؟»

سألتُها مبادلًا إياها الابتسامة، لتُضيّق حدقتيها وعينيها المسحوبتين الآسيويتين... ثم تقول أخيرًا:

«(عثمان)!»

لم أكُن لأستغرب عملها في تلك الرحلة، فطالما قابلتُ العديد من زملاء الضيافة الجوية في رحلاتي. عرّفتُها على المحامية (مجد) سريعًا وتحدثتا بإنجليزية رسمية، قبل أن تسألني والابتسامة لا تغادرها:

«ستحتسي الشاي، أليس كذلك؟»

أجبتُها مومئًا:

«وهل عندك شك؟»

سكبتْ لي الشاي في كوبٍ ورقي وناولته لي، وقدمت لـ (مجد)

القهوة التي طلبتها... لتُكمل دفع العربة لبقية الركاب مع زميلها المضيف الذي لم تجمعني به رحلةٌ من قبل. عدنا لإكمال أحاديثنا التي لا تنتهي، فقد كانت مثيرةً للاهتمام دومًا بالنسبة لي... لا سيما حين تتحدث عن القضايا المروعة والغريبة التي تواجهها يوميًّا. وعلى الجانب الآخر، كان مجال الكتب والروايات يثير اهتمامها بشدة... كما هو الحال مع أي قارئٍ نهم يُجالِسُ كاتبًا. ومجال ضيافة الطيران الذي ما انفكّت تسألُ عن كل إجراءٍ حدث أمام عينيها منه، أو في رحلاتها السابقة... فالمجال مختلِفٌ تمامًا من منظورِ راكبٍ ومنظور ملاح جوي. (ملاح جوي)، اسمٌ راقٍ وضعوهُ عِوضًا عن (مضيف طيران). كانت إحدى تلك المحادثات التي تفقدُ فيها الشعور بالوقت، وتنغمسُ في تفاصيلها المثيرة الدقيقة... وترغبُ أن تستمر لساعاتٍ دون انقطاع.

«أستأذنك للذهاب لدورات المياه»

قالت (مجد) وهي تنهضُ من كرسيها ليظهر طولها الشاهق، والذي أعطاها رونقًا يليقُ بمحامية. كان الكرسي الذي بيننا فارغًا مما أعطانا القليل من السعة، حثت الخُطا نحو الحمام وقررتُ العودة لإكمال روايتي، فتحتُ (الآيباد) وأبحرتُ مجدّدًا في أعماق الأحداث... وأذناي انشغلتا بالاستماع لقائمة التشغيل التي اعتمدتُها وقت الكتابة... مُرتشفًا من كوب الشاي المرير.

(طائفة الشعيبة)، تلك الرواية التي تأبى أن أنتهي من كتابتها.. وقد يئس القراء من صدورها حتى اعتقد بعضهم أني سأعتزل الكتابة بعد توظّفي كمضيف طيران! لكن الكاتب وإن قرر الاعتزال فإنه لا يعتزل الكتابة أبدًا، قد يعتزل النشر لكنه سيبقى يكتب حتى تُقبَض روحه... كما قال أحد العلماء: «مع المحبرة إلى المقبرة»

لم تقاطعني (مجد) بعد عودتها، فقد أسندتْ رأسها على المقعد في محاولةٍ للنوم... لأقِفَ من مقعدي وقد شعرتُ بالحاجة الشديدة لاستعمال الحمام. لم أرغب بإيقاظها ولم أعلم إن كانت نامت أصلًا، لتفتحَ عينيها وتقف من كرسيها فورًا... لتسمحَ لي بالذهاب وأنا أعتذر منها إن كنتُ أيقظتها. كان أقرب الحمامات في المقدمة مشغولًا، وبالخارج رجلٌ عجوزٌ ينتظر. اتجهتُ لمؤخرة الطائرة التي بدت حماماتها فارغة، شاقًّا صفوف الركاب الذين غطّ أغلبهم في نومٍ عميق. وصلتُ ولم يكُن المضيفان المُكلّفان بمواقعهما الخلفية موجودين. فتحتُ باب الحمام لأتفاجأ بأبشع منظرٍ وقعت عيني عليه، ولم أعلم حتى هذه اللحظة كيف فقدتُ الرغبة الكاملة بقضاء الحاجة بعدها... فقد رغبتُ بأن يكون كابوسًا مزعجًا يوقظني منه أحدهم... أو مشهدٍ مرعبٍ في إحدى رواياتي ينتهي بإغلاق الكتاب ووضعه بعيدًا.

كان الرجل مضرّجًا بدمائه فوق المرحاض، بجسده البدين نسبيًّا... وعيناهُ الصريعتان تكادان تخرجان من مكانهما! أغلقتُ باب الحمام بيديّ المرتعشتين، ومشيتُ حتى استندتُ على آخر مقعدين فارغين وجسدي لا يزال واقفًا... محاوِلًا استيعاب ما شهدته للتو. غير معقول، أي فيلمٍ أو روايةٍ هذه التي رأيتُها قبل قليل؟!

كاتب الجريمة والغموض كان شاهدًا على جريمة قتل؟! لحظة، لربما كانت انتحارًا... لربما لم يعُد يطيق الحياة فقرر الانتحار بين السماء والأرض! ها هي ذي المضيفة (ماري) تتقدم باستغرابٍ نحوي، تسألني عما إذا كنتُ بخيرٍ أو لا... بالطبع لستُ بخير ولن أكون لمدة طويلة جدًّا. أخبرتُها عن الجثة الصريعة في الحمام، لتنزل كلماتي على أذنيها كالصاعقة... وتسمّرت في مكانها لحظاتٍ قبل أن تأخذني من يدي وتُجلِسَني على أحد كراسي المضيفين بالمؤخرة. حاولتْ تطميني وتهدئتي وهي في أمس الحاجة لمن يُهدّئها، فضحتها عيناها الصغيرتان المسحوبتان ولغة جسدها... قبل أن تتشجع أخيرًا وتتركني لتتحقق من صحة ما أقول. قامت للحمام وفتحتْ بابه بهدوء، قبل أن تسحبَ نفسًا عميقًا وتغلقه سريعًا... وتقفله من الخارج حتى لا يستخدم أحدٌ ذلك الحمام... تلك مزيّة يمتلكها المضيفون فقط.

«علينا أن نخبر المضيفة المشرفة وننتظر تعليماتها، اشرب قليلًا من الماء واهدأ ولا تقلق... لقد تدربنا على حالات الطوارئ هذه... أنسيت؟»

كانت (ماري) تقول تلك الكلمات لنفسها على الأرجح، فتوتُّرها الفاضح تناقض مع كلماتها.

أخذتُ منها علبة الماء قبل أن تعود لي الحاجة للحمام، لكنني لم أكُن لأستطيع الوقوف حينها من الصدمة... وتفاجأنا وقتها بزميلها المضيف الذي كان في طريق العودة لموقعه.

همستْ له (ماري) بعد أن أصبح واقفًا أمامنا، متأملًا حالتنا المزرية التي أحاطت بها هالةٌ من الارتياب والقلق... منتظِرًا تفسيرًا من زميلته المضيفة عن سبب جلوس راكبٍ في مقعد مضيف:

«(رويد)، لدينا حالة طوارئ»

تغيرت ملامح وجهه للجدية التامة، واتخذ أقرب مقعدٍ ليستمع لما ستقوله (ماري). لم تحول نظرها إليه كما اعتقدنا، بل استلمت الهاتف الذي يتيح للمقصورة الخلفية التواصل مع المقصورة الأمامية... وانتظرت بضع لحظات لتنطق بنبرةٍ جادّة منخفضة:

«هذه (ماري) (R4C)، لدينا حالة طارئة تستدعي وجودك بالخلف»

عمّ التوتر المقصورة الخلفية بالكامل، وتبادل ثلاثتنا النظرات القلقة... بيد أن (رويد) كان ينظُرُ لي بين الفينة والأخرى بازدراء وريبة... حسنًا أنا أكرهه مبدئيًا ويبدو أنه يكرهني لسببٍ لا أعرفه. كم أمقتُ أولئك الأشخاص الذين يرسلون نظراتهم الازدرائية لكل من لا يعرفونهم، لكني لم أكُن في موقفٍ يجعلني أفكر بالكريه ونظراته... فعلى بعد أمتارٍ مني توجد جثة هامدة!

وصلت المضيفة المشرفة من المقدمة أخيرًا، بملامح وجهها الجامدة وحاجبيها الحادين... ليقومَ لها (رويد) ويهمس بأذنها. فتحتْ عينيها على مصاريعهما، قطّبت حاجبيها الحادّين... اتجهت للحمام المنشود وفتحته ثم أغلقته سريعًا مع إقفاله من الخارج. واضعةً يدها على قلبها من هول المنظر، لحظاتٌ استعادتْ فيها أنفاسَها ثم التفتتْ علينا وقالت:

«سأبلّغ الكابتن وسننتظر توجيهاته. (ماري)، (رويد)... لا تغادرا المقصورة الخلفية مهما كلف الأمر حتى لا نثير الهلع بالتجمع في مكانٍ واحد... ولا يدخل راكبٌ لهذا الحمام تحت أي ظرف... ولا تدعوه يغادركم حتى لا يذيع الخبر لبقية الركاب»

أشارت لي وكأني طفلٌ توصي أمه أحد أقاربه عليه، حتى لا يصيبه

مكروه. استطعتُ قراءة اسمها المعلق على معطف عملها، (روان)... استدارت وحثت الخُطا للمقدمة. لم يعلم أيٌّ منا ما يفعله في الوقت الراهن، حتى يأتي تحديثٌ من الطيّار... أما أنا فوددتُ لو لم أذهب للحمام أصلًا. وددتُ لو لم أشرب كل تلك السوائل التي جعلتني أحتاج الحمام، وليتني قضيتُ حاجتي حتى!

وقفتُ عاقدًا العزمَ على استخدام الحمام الآخر، ليسألني (رويد):

«إلى أين أنت ذاهب؟»

أطلتُ النظر فيه قبل أن أمتعض:

«ليس لك الحق في إلقاء الأسئلة فلا تلعب دور الشرطة ''

فتحتُ باب الحمام وكلي خوفٌ أن أجد جثةً أخرى، نظرتُ بهدوء وتحققتُ عدة مرات من عدم وجود الجثة... وكأنها ستظهر في إحدى المرات من العدم. أغلقتُ الباب وأسرعتُ حتى انتهيت، كنتُ أعد الثواني حتى أغادر... وكأن جثة ستسقط على رأسي في أي لحظة.

لم ألبث أن انتهيتُ حتى غادرتُ مباشرةً، لأجد (رويد) و(ماري) يجلسان في صمتٍ تام كما تركتهما... ظاهره الصمت لكن باطنه صراخٌ قاتل يطلب النجدة. فوجود جثة يرجّح بشدة وجود قاتلٍ معنا، والقاتل لن يتردد في زيادة عداد الضحايا عنده... لو اشتم رائحة

الخطر! لكننا كمضيفي طيران يتم تدريبنا على حالات الطوارئ الأشد خطرًا من هذه، لكن أن نتدرب لها شيء... وأن نواجهها شيءٌ مختلفٌ تمامًا... فمن النادر جدًّا جدًّا أن تحدث. المضيف يلعب دور رجل الأمن والإطفاء والإسعاف، بين السماء والأرض حيثُ لا تواصل مع أحد... فيتم تدريبه على الإسعافات الأولية وإطفاء الحريق والتعامل مع حالات الاختطاف والتهديد والجريمة. بالطبع لن يتمكن من فعل كل ذلك وحده، وسيلعب الطيّار الدور الأهم في سلسلة طاقم الطائرة، فهو الآمر الناهي في جميع الأحوال... ويأتي بعده مساعده ثم المضيف المشرف ثم بقية المضيفين. قالت (ماري) ويداها على فخذيها والتوتر يكاد يقتلها:

«(عثمان)، لقد أمرنا الطيّار بالانتظار حتى الهبوط بالمطار وقد أبلغَ الفريق الأرضي لتبليغ الشرطة التي ستكون في انتظارنا لتفتيش الطائرة بالكامل»

أومأتُ برأسي وجلستُ جوارهما، وقد شعرتُ بقليلٍ من الارتياح حين سمعتُ اسم الشرطة... اللهم أنزِل هذه الطائرة بسلام وأنزِل على قلوبنا السكينة. لِمَ قد يقتل أحدهم على متن طائرة، حيثُ لا مفر ولا مهرب؟! أسندتُ رأسي للخلف وأغمضتُ عيني، سحبتُ نفسًا

عميقًا وقد علمتُ أنه سيكون صباحًا صعبًا طويلًا.... وكل ما أراه في مخليتي ذلك الرجل القتيل في الحمام. حاولتُ ملء عقلي بالأفكار السعيدة، إلا أنه يأبى سوى رد صور الجثة الهامدة المضرجة بالدماء!

«تم إضاءة ربط الأحزمة، عليكِ العودة لمقعدك يا أختي»

نطقها (رويد) بجواري - متحدّثًا مع إحدى الراكبات على ما أعتقد - ولم أمتلك الطاقة لفتح عيني، لعلها أرادت الاختباء حتى لا ترى مصيبةً أخرى من هول ما رأت. وبالفعل بحلول تلك اللحظة سمعتُ الرنّة ذاتها التي تؤذن بضرورة عودة الركاب لمقاعدهم، وربط أحزمتهم.

«ابتعد من فضلك! الإشارة أضيئت لتوها وأستطيع الانتهاء سريعًا»

امتعضت الراكبة واحتدّت نبرتُها، أجبرني الفضول على فتح عيني لأرى (ماري) التي وقفت وسحبت يد (رويد)... لتسمحَ للفتاة باستخدام الحمام. لم أتمكن من رؤية ملامحها فقد أسرعتْ بدخول الحمام وإغلاق بابه.

«ما بك؟ أنتَ تعلم أن هناك وقتًا كافيًا قبل الهبوط يمكّنُها من استخدام الحمام، عليك أن تتصرف بشكل طبيعي حتى تهبط هذه الطائرة اللعينة!»

همست (ماري) وهي تقطّب حاجبيها، وكانت تلك المرة الأولى تقريبًا التي أرى ابتسامتها تتلاشى فيها... والعبوس يرتسم على وجهها نوعًا ما.

وقفتُ وهممتُ بالعودة لمقعدي قبل أن تمسك (ماري) بيدي وهي تنطقُ بصرامة:

«أرجوكَ لا تخبر أحدًا عما رأيتَ حتى لا ينتشر الهلع بين الركاب ولن نستطيع السيطرة عليهم»

أومأتُ لها وفُتِحَ باب الحمام، لتخرج الفتاة منه عابسةً وهي ترمقُ (رويد) بنظراتٍ قاتلة... وهناك فقط لم أستغرب عبوسها وحِدة طباعها حين رأيتُ ملامحها. غيرُ معقول، أنا في كابوسٍ فعلًا ويستحيلُ أن يكون كل هذا محض مصادفة! تلك الفتاة لم تكُن سوى (شوق)، زميلةٌ مضيفةٌ وكانت في دفعة التدريب ذاتها التي كنت فيها... الدفعة الخامسة والأربعين. أكل الركاب في هذه الطائرة معارف؟!

«(عثماااان)، ما هذه المصادفة؟»

مدت يدها لتصافحني وقد انقلب وجهها العابس ليكشف عن ابتسامتها، وقد كانت تلك طريقتها في مناداتي من أيام التدريب... تلك الأيام الغريبة التي التقيتُ فيها بأشكال وأنواع الناس والعقليّات.

وقعت عيني على شامة خدها الأيسر، والتي كانت علامةً مميزة على بشرتها الحنطية المائلة للسمرة... متناغمةً مع شعرها الأسود المجعد.

حاولتُ إخفاء توتري وسألتُها وأنا أمشي معها نحو المقاعد، مصطنعًا ابتسامةً غبية:

«مـــ... ما أخبارك (شوق)؟ وما أخبار العمل معك؟»

أجابت وهي تقف أمام صف مقاعد:

«آهخ، صداعٌ وضغط جوي... لا يجلس أحدٌ بجواري إن أردت الجلوس لنتبادل الأخبار»

جلستْ بجوار النافذة وجلستُ بجوارها دون تفكير، وكأن أحدهم يسوقني ويتحكم بعقلي. لم يكُن عقلي في حالةٍ تسمحُ له بالتفكير واتخاذ القرارات، كل ما كنتُ أفكر فيه (شوق) المسكينة التي قضت حاجتها بجوار جثة وهي لا تعلم... ماذا ستفعل لو علمت؟

«(عثمان)، هل أنتَ بخير؟ أين سرحتَ بخيالك، ساعةٌ وأنا أكرر عليك السؤال دون استجابة!»

أعادتني (شوق) لأرض الواقع وهي تنظُرُ لي باستغراب، وقد فضحت لغة جسدي أن لا شيء على ما يرام... وأن ثمة شيئًا خطيرًا للغاية يحدث. وعلى الرغم من أني كنتُ أتأملُ عينيها البنيتين

الناعستين، إلا أن عقلي كان يسبحُ بعيدًا في أعماق تلك الجثة والقصة وراءها... لأقول وعيناي لا تغادران عينيها:

«(شوق)»

أومأت برأسها وكلها آذانٌ صاغية، لأقول لها رغمًا عني فلم أعد أتحمل السكوت وتلك الجثة تثقل كاهلي:

«تـــ... تـــ... توجد جثةٌ في الحمام الذي كان مقفلًا!»

فتحت عينيها البنيتين على مصاريعهما، لترفعَ جسدها وتحوّل نظرها لمؤخرة الطائرة... ثم تعيد نظرها لي وعقلها لا يستوعب ما وقع على مسامعها للتو.

جميع الحقوق محفوظة لقناة زَقَش

«ماذا؟!»

هالةٌ من الريبة

وكعادة الركاب في كل رحلة، فقد وقفوا جميعهم بمجرد توقف الطائرة رغم عدم فتح الأبواب... الاستعجال الذي سيرغمهم على الانتظار واقفين حتى تُفتَح. أما أنا و(شوق) فقد التزمنا الصمت وأحاطت بنا هالةٌ من الرعب، ولا أعلم ما سيفعله أمن المطار بالضبط... أسيبقوننا داخل الطائرة حتى يحققوا في أمر تلك الجثة؟

«أعزاءنا الركاب، الحمدلله على سلامتكم ونرحب بكم في (مطار...) بمدينة (...)، حيث التوقيت المحلي ٥:٣٠ صباحًا ودرجة الحرارة الخارجية ٢٨ درجة مئوية... نيابةً عن كابتن الطائرة و...»

استمر المضيف بالترحيب وكأن كل شيء طبيعي، وأولئك الركاب المساكين لا يعلمون أن جثةً قد هبطت معهم على أرض المطار.

«أتعتقد أنهم سيدعوننا نغادر الطائرة هكذا بكل سلام؟»

سألتني (شوق) عاقدةً ذراعيها، مقطّبةً حاجبيها وهي ترمق الركاب الواقفين أولئك بنظراتها الازدرائية... كما جرت العادة عندما تقع أعينها على أي شخص غريب. ما زلتُ أتذكر نظراتها القاتلة التي كانت ترسلها لشباب دفعة التدريب، والذين حاولوا بشتى الطرق

بدء المحادثات معها... والتي تنتهي بمصارحتها الجافة معهم لتغلق عليهم الطريق. لا سيما ذلك الشاب الذي لم ولن ييأس من المحاولة معها، (مناور) لو وضع ربع صبره ومحاولاته وعزمه ذلك في تحقيق أحلامه لأصبحَ شيئًا عظيمًا جدًّا. كانت تلك بيئة ضيافة الطيران بكل شفافية، في التدريب وعلى رأس العمل... فإما أن يلتزم الشاب والفتاة بالمحافظة على احترافيتهما مع زملائهما أو يدخلا في دوامات عميقة يتصدع لها الرأس ويتطبعا بطباع البقية.

هي تضع كل تلك التصرفات جاهدةً لتُكوّن حصنًا منيعًا، يُخفي قلبًا طيّبًا ولُطفًا لا تعلم بالضبط كيف تستخدمه... وهشاشةً وحُزنًا دفينًا جراء سنواتها القليلة في الحياة التي قاربت سِنِيَّ. لم أتمكن من البقاء هادئًا واستمر جسدي بالالتفات يمنةً ويسرةً، لتفحص وجوه الركاب التي أثبتت جهلهم التام بما يحصل حولهم... مناقضةً لملامح المضيفين التي صرخت توترًا وقلقًا.

لم يكن القلق جراء وجود جثة لعينة في الحمام فقط، بل لجهلنا بالخطوة القادمة وخوفنا من أن يكتشف أحدهم ما يحدث... ويثير الهلع في الأجواء.

الحمدلله، ها هو ذا الباب الأمامي فُتح وابتدأ الركاب الذين فقدوا

صبرهم بالنزول. ولقلة عددهم الذي لم يتجاوز العشرين راكبًا، استغرق إخلاؤهم للطائرة بضع دقائق... لتلتفت المحامية (مجد) للخلف وتراني. لحقتها على عجل مع (شوق)، لنكون آخر الركاب مغادرةً للطائرة.

«أين اختفيت أنت؟»

سألتني (مجد) بتعجب وعيناها تنظران لـ (شوق) بازدراء، ولم تكن لتسكت الأخيرة فبادلتها النظرات ذواتها.

«أعتذر منك، التقيتُ (شوق) عن طريق المصادفة وأخذتنا الأحاديث الجانبية... هذه زميلتي (شوق) مضيفة طيران... هذه المحامية (مجد)»

عرفتهما ببعضهما سريعًا وأقدامنا تخطّ ممر الطائرة على عجل، لألتقي المضيفة المشرفة (روان) وبجوارها المضيف الرابع الذي لا أعرف اسمه بعد... أومأت لي بصرامة لأبادلها الإيماءة. وبمجرد خروجنا لدرج الطائرة وقعت عيني على الشيء الذي جمّد الدماء في عروقي، كانت الحافلات الخاصة بنقل الركاب للمطار موجودة كعادتها ولا شيء غريب فيها... إلا أن المفزع هو إحاطة سيارات أمن المطار حول الحافلة مع عدة رجال أمن على الأقدام.

«لأول مرة أرى هذا الكم الهائل من رجال الأمن، ما السبب؟»

تساءلت (مجد) وهي تلتفتُ علينا بحكم خبرتنا بمجال الطيران، فسكتَ كلانا قبل أن أجيب كاذبًا:

«تحدث أحيانًا حسب إجراءات أمن كل مطار»

وددتُ لو استطعتُ إخبارها عما يجري لكني لا أعلم كيف سيطرتُ على نفسي، شعرتُ بالرطوبة القاتلة التي تلصق الملابس بالجسد بشكل مقزز... والتي تميزت بها تلك المدينة الساحلية. الشمسُ بدأت مشوار تسلقها للسماء، لتسلط أشعتها القاسية لاحقًا بحلول ذلك الوقت من الصيف. خطوةٌ تتلو الأخرى على السلالم، دون أن أنبس ببنت شفة لـــ (مجد) أو (شوق)... اللتين سبقتاني لترتادا الحافلة المحاطة بالقوات. تخطاني أحد رجال الأمن والذي ارتسم الحزم على محياه، ليصعد السلالم نحو الطائرة... سبحان من نزع القبول من وجهه... كان أحد أولئك الذين لا ترتاح لهم النفس عند رؤيتهم! التفتُّ ورفعتُ بصري لأرى (روان) والمضيف الآخر الذي لا أعرف اسمه بعد ينظران بصمتٍ وارتياب، متأهبين لتعليمات رجل الأمن.

مشيتُ للحافلة لأكون آخر ركابها، أُغلِقَ الباب خلفي وعيناي تتمعنان الركاب بريبة... من عساهُ يقتل ذلك البدين المسكين بكل وحشية وفي أغرب مكان؟!

تحركت الحافلة لمصيرنا المجهول، محرّكًا بصري بين رجال وسيارات الأمن التي أحاطت بنا من كل صوب... بالطبع ذلك الكم الهائل منهم غير طبيعي أبدًا... على نقيض ما أخبرت به (مجد) قبل قليل. وجودهم أصلًا عند الحافلة غير طبيعي، ناهيك عن هذا العدد الغفير.

«ما هذه الرحلة الغريبة، أشعر وكأني في حلم من أحلام العصر... كيف اجتمعنا في هذه الطائرة؟»

نطقتها (شوق) ناظرةً حولها بنظرتها الازدرائية، لتعارضها (مجد) وتقول:

«أعتقد أنك تبالغين، دائمًا ما تحصل المصادفات حتى في الطائرات... وكلنا من المنطقة نفسها»

مسكينة، مغيّبةٌ تمامًا عن الواقع... في الحقيقة نحن المساكين الذين وعينا بما حدث... أما هي فجهلها جعلها في نعيم لا تحمل هم ما سيحصل. حسنًا، يبدو أنه نعيمٌ مؤقت فالحافلة لا تتجه لصالة القادمين... بل أخذتِ انعطافًا للشمال مما جعلني أنظر لـ(شوق) بقلق واضح. كلانا يعلمُ الصالة التي كانت تتجه لها الحافلة، صالة الاحتجاز الأمني لأولئك الذين صدر عليهم بلاغ أمني. لحظاتٌ وتوقفت الحافلة أمام مبنى الاحتجاز الذي كان مكدّسًا بسيارات الأمن، الحمدلله... قارب هذا الكابوس على الانتهاء.

لم أكُن أعلم أن اللحظة تلك ستكون بداية انتشار التساؤلات والاستغراب من الركاب، وهذه المرحلة هي التي تسبق مرحلة الهلع مباشرةً إن لم يتم السيطرة عليها. فُتح باب الحافلة ليستقبلنا أحد رجال الأمن، ويقول بصوتٍ عالٍ يسمعه الجميع:

«تفضلوا معنا أرجوكم بهدوء، سننتهي من بعض الإجراءات والاحتياطات الأمنية»

ظنًّا منه أن ذلك سيخفف من توترهم إلا أنه لم يزدهم إلا خوفًا وقلقًا، غادرتُ الحافلة على عجل وأنا أستمع لتساؤلات الركاب وأصواتهم التي بدأت بالتعالي... وخلفي تمشي (مجد) و(شوق) اللتان كانتا تتلفتان حولهما مثلي. دخلتُ مبنى الاحتجاز الذي كان مزعجًا جدًّا، ليس لكثرة البشر فيه، بل لانعدامهم... كان المبنى يحوي ذلك الهدوء والسكون القاتل الذي يكون أشد ضجيجًا من الضجيج. أشار لي رجال الأمن بالداخل للجلوس في الكراسي الكثيرة التي شابهت كراسي الانتظار في العيادات، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى غادر الهدوء والسكون الغرفة وامتلأ مبنى الاحتجاز بالركاب الهلعين... الذين ما انفكوا عن سؤال رجال الأمن والتساؤل بمن فيهم (شوق) و(مجد). أما أنا فقد التزمتُ الصمتَ وقررتُ لعب دور الشجاع الفاهم

لكل شيء، متناقضًا مع إحساسي الذي كان يتفجر رُعبًا وقلقًا وجهلًا من القادم! لم أدخل مبنى الاحتجاز ذاك في حياتي أبدًا حتى كمضيف طيران، ولم أرَ جثةً على أرض الواقع من قبل. ما الذي يفعلونه الآن مع طاقم الرحلة؟! وما الذي يفعلونه مع تلك الجثة؟!

«ما الذي يحصل بالله عليك؟»

قالت المحامية (مجد) وهي تجلس بجواري، وسط ضجيج الركاب الذين كنتُ أعدهم لأعرف عددهم بالضبط. أشرتُ لها بالصبر لأكمل العد، سبعة عشر راكبًا... نضيفُ ستة ركاب الذين هم طاقم الطائرة مع الطيّار ومساعده... يصبح المجموع ثلاثة وعشرين شخصًا.

أجبتُها بعد أن انتهيتُ من عدّهم، ناظرًا لعينيها القلقتين اللتين أحاط بهما النقاب:

«لا أعلم بصراحة، لكن الأكيد أن هذا المكان ليس الذي يفترض أن تنزلنا الحافلة به»

صرخَ أحد رجال الأمن بكل حزم:

«الرجاء من جميع الركاب الجلوس في المقاعد حتى نعطيهم التعليمات، هلا جلستِ سيدتي وتوقفتِ عن الحديث؟!»

صرخَ على سيدةٍ كبيرةٍ في السن كانت تحاول مقاطعة حديثه، وكان صبورًا للغاية معها حتى فقد صبره... وأشار لأحد الكراسي. كان صراخه ونظراته الصارمة كافيةً لتُخيفَ الجميع وتقطع إزعاجهم، لم يكونوا مطمئنين بالتأكيد... بل فعلوا ذلك جراء الخوف وكلهم يعرفون معنى مخالفة تعليمات الشرطة. استقل الجميعُ مقاعدهم أخيرًا، وعاد المبنى لهدوئه الغريب مع قليل همهمة... بإضاءته البيضاء الغريبة التي شابهت إضاءة المصحات النفسية المزعجة.

«هل ستخبرونني عما يحصل حولي أم ماذا؟»

امتعضت (مجد) وهي ترمقنا بنظراتها القلقة، ومن يلومها؟ فأكبر أعداء العقل الجهل بما يحدث حوله، وهو الشيء الذي يقوده للبحث عن الحقيقة... ثم يندب حظه ويلعن اللحظة التي تعرف فيها على الحقيقة... ويتمنى لو ظلّ غارقًا في جهله ما حيي.

لم تكُن لتتحمل (شوق) المزيد من الأسئلة واستعدت للاعتراف بكل شيء، حاولتُ تهدئتها لكن لا فائدة... قالت بكل صراحة:

«هناك...»

«أنت (عثمان)؟»

قاطع حديثها العسكري الذي تحدث بصرامة وحزم، ناظرًا لي بعينيه اللتين سيطر الحَوَل على اليمنى منهما... حتى أني حسِبتُ ابتداءً أنه ينظر خلفي.

أجبتُهُ بتوتر وأنا أقف وقدماي بالكاد تحملانني، رغبت يدي بالارتعاش أيما رغبة... لكنني لا أعلم كيف سيطرتُ عليها:

«نـــ... نـــ.. نعم، أنا (عثمان)»

من كان يتصور أن أكثر الأشخاص حديثًا ووصفًا للجريمة وما يتبعها، سيكون أكثرهم رعبًا لو وُضِع في خضم الأحداث التي يكتب عنها... ما زلتُ أؤمن أن ما يحدث مجرد كابوسٍ سأستيقظ منه أو أحداثُ روايةٍ سينتهي عيشي لها بمجرد إغلاقي لجهازي.

«تفضل معي، نود التحدث معك قليلًا على انفراد»

لم أتوقع أن أسمع هذه العبارة من رجل أمن في حياتي! أنا الشخص الأكثر حرصًا الذي لو سجلت عليه مخالفة سرعة مرورية يُسارع بتسديدها في اللحظة ذاتها، ولم يسبق لي دخول قسم الشرطة ولا أعرف شكله حتى... والآن سيتم استجوابي في قضية قتل على الأرجح.

مشيتُ مع العسكري نحو المجهول وأنا أجر معي شنطتي، هو يمشي بخُطًا ثابتة بينما كانت مشيتي مهزوزةً تفوح منها رائحة التوتر

والارتياب... وكل الركاب ينظرون لي نظرة الاتهام وكأني أنا السبب فيما هم فيه الآن. وصلنا للغرفة المنشودة وفتح لي بابها، لأرى الشخص الجالس على المكتب... بشماغه وعقاله الرتيبين.

وقفَ لمصافحتي بوجهه البشوش النضر، لأبادله الابتسامة بتوتر... لِمَ يبتسم أصلًا؟

«معك المحقق (أبو تركي) من المباحث، تفضل بالجلوس (عثمان)»

جلستُ أمامه بعد مصافحته والأفكار تتعارك داخل عقلي، أليس من الأجدر أن يكون صارمًا حازمًا بدلًا عن لطفه وابتسامته؟

«ماذا تحب أن تشرب؟»

جنون الارتياب سيطر على عقلي آنذاك، ما هذا اللطف المبالغ به؟! على النقيض مما توقعت.

«شكرًا لك»

أجبتُهُ بنبرةٍ قلقة، أرجوك دعنا ننتهِ من هذا التحقيق بأسرع وقت... أريد العودة للبيت واحتضان الوسادة بعد الأهوال التي رأيتها.

«أعتقد أنك تعرف لِمَ أحضرناك هنا، هل عندك تصور؟»

ذكي للغاية، كان سؤاله يخفي الكثير وراءه... حتى أخبره بأشياء

قد لا يكون يعرفها من قبل... ولكن ماذا عندي لأخفيه؟ اعتدلتْ في جلستي وأنا أثبت عيني القلقتين على عينيه المريحتين، كان وجهه النضر بلحيته وشاربه المحددين باحتراف مع ترسيمته الأنيقة... يشكل القبول في أبهى صوره.

قلتُ بصوتٍ منخفض مقتربًا منه حتى لا يسمعنا أحد، رغم العوازل القوية التي أحاطت بغرفة الاستجواب:

«بخصوص الجثة في الطائرة؟»

تلاشت ابتسامته وتحول وجهه للجدية التامة، مقطّبًا حاجبيه وهو يقترب مني ليسأل:

«عن أي جثة تتحدث؟»

استجواب

غير معقول! غير معقول البتة! كيف يتجه التحقيق لهذا المسار الغريب؟! الآن وقد أصبحَ المحقق (أبو تركي) يرسل لي نظراته المرتابة القاتلة، لم يكن وحده في غرفة التحقيق... بل كان يجلس بجواره رجلٌ عبوسٌ - خلتُهُ محققًا هو الآخر - ناقضَ (أبا تركي) بالكلية بوجهه العبوس وعينيه اللتين تكادان تغادران مكانيهما. اختبأ وجهه خلف كمامة زرقاء، كممارسٍ صحي في ساعات العمل... واضعًا شماغه خلف ظهره مقلّبًا كفيه اللتين برزت عروقهما أيما بروز.

«حسنًا (عثمان)، اهدأ قليلًا وحدثني عن كل ما رأيته في هذه الرحلة... تذكر أننا في صفك ولسنا ضدك»

قالها (أبو تركي) مغمضًا عينيه، آخذًا نفسًا عميقًا في محاولةٍ بائسة للتحكم بأعصابه.

«ألا تعلمون عن الجثة؟ عمّ تحققون معي إذًا؟»

تساءلتُ بجهالةٍ وقلق.

تحرّك المحقق المكمّم ونطق للمرة الأولى بكل فظاظة:

«نحن من سيطرح الأسئلة هنا وعليك الإجابة فقط»

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وأومأتُ برأسي وأنا أنظر لـ (أبي تركي) بعد أن قررتُ أن النظر له مريحٌ أكثر للتحدث:

«حسنًا، كانت رحلة عادية جدًّا كأي رحلة حتى ذهبتُ لقضاء حاجتي في حمام الطائرة، عندها رأيتُ جثةً لرجلٍ ينزف من عنقه... أغلقتُ الباب سريعًا وأبلغتُ المضيفة (ماري) التي بدورها أبلغت المضيفة المشرفة التي أبلغت الطيّار وقرر عدم فعل شيء حتى الهبوط وعدم إخبار أحد»

سألني (أبو تركي):

«متى رأيت الجثة بالضبط؟»

أجبته:

«آهخ، لا أتذكر بالضبط لكنها كانت قبل الهبوط بوقت»

صمت الجميعُ وكلا المحققين يتفحصان وجهي، محاولين تحليل لغة جسدي وكأنهما جهاز كشف للكذب. عمّ التوتر أرجاء الغرفة، مبثوثًا من جسدي الذي وقع تحت الضغط الشديد... وأنا أدعو الله أن ينتهي هذا التحقيق البئيس على خير.

طلبني المحقق المكمّم:

«صِف لنا الجثة بدقة أكبر»

«بدين نسبيًا، أبيض البشرة، أصلع الرأس، منحور العنق وقد كان نظره للأعلى والدماء تسيلُ على قميصه... هذا كل ما أتذكره»

باغتني (أبو تركي) بسؤال مباشرةً:

«ماذا عن السيدتين اللتين كنت تحدثهما، هل تعرفهما من قبل؟»

أجبتُهُ بكل ما في جعبتي:

«نعم، المنقبة هي المحامية (مجد) ولها مكتب محاماة في مدينتي وقد التقيتُ بها هناك وبيننا معرفةٌ قديمة. أما الأخرى فهي (شوق)، مضيفة معي في (طيران...)»

عادت الغرفة لصمتها المريب والمحققان يتفحصانني بنظراتهما المقلقة. لحظات ووقف (أبو تركي)، مادًّا يده ليصافحني ويقول:

«نشكرك على تعاونك معنا (عثمان)، وسنتواصل معك في حال احتجنا مزيد معلوماتٍ منك... نعتذر عن الالتقاء في هذه الظروف وهذا الوقت من الفجر»

اصطنعتُ ابتسامتي وسحبتُ شنطتي لأغادر الغرفة، وكم كان الهواء مريحًا للغاية خارج غرفة التحقيق! إلهي، كم كانت الأجواء متوترة بالداخل... لتجبرك وحدها على الاعتراف بكل شيء حتى لو لم تفعل شيئًا! مشيتُ مع العسكري الذي قادني خارج مبنى الاحتجاز، لتقع عيني على (مجد) و(شوق) اللتين كانتا تنتظرانني على أحر من

الجمر... لكن الفرصة لم تسنح لي أن أحدثهما فقد أرغمني العسكري على مغادرة المبنى سريعًا وارتياد الحافلة التي أخذتني لمبنى المطار.

لِمَ حققوا معي أنا أولًا؟! ولِمَ سألوني عن علاقتي بـ (مجد) و(شوق)؟ هل يرتابون بوجود علاقةٍ لنا بالجريمة! هذا قد يبرر عدم رغبة العسكري أن أحدثهما بعد التحقيق. دارت الشكوك برأسي ولم أعُد أستطيع التفكير بشكلٍ جيد، حتى اكتشفتُ أن قائد الحافلة يصرخ لي بالنزول للمطار بعد أن أخذتني تساؤلاتي بعيدًا عن الواقع. كيف يفترض بي أن أكمل حياتي بعد كل ما حدث؟ غير عالمٍ أن الذي مضى كله قد يهون، مقارنةً بما هو قادم من كوابيس.

***

أقتربُ منه أكثر لأتفحصه لكنه لا يحرك ساكنًا، وما أغباني فبالتأكيد لن يتحرك وهو جثة هامدة! هناك على ذلك المرحاض جلس والدماء تنزف من رقبته، بعد أن طُعِنَت بلا رحمة. يخالجني شعورٌ رهيبٌ يحثني على العودة من حيث أتيت، إلا أن عقلي وكامل جسدي رفضا تلك الفكرة... لأجد نفسي أحدق به عن كثب. ذلك البدين الذي بالكاد وسعه الحمام، والذي لم يلحق حتى أن ينزل سرواله لقضاء حاجته... قبل أن يقتله أحدهم.

وبدون سابق إنذار، يحرك القتيل رأسه ذا العينين المفتوحتين ويصرخ بأعلى صوته! قفز قلبي من مكانه وأنا أغوص في تفاصيل عينيه الحمراوين اللتين امتلأتا خوفًا ورعبًا! سددتُ أذني بيدي وأنفاسي تتباطأ وأنا أشعر باختناقٍ شديد، بدأت الدنيا تسودّ في نظري واتكأتُ على الحائط وصوتُ الصراخ يتزايد...

آه! فتحتُ عيني وأنا أتألم جراء سقوطي من على الأريكة، تحسستُ رأسي بألم وأنا أتذكر أحداث الكابوس المروع. تنهدتُ بعمق والعرق قد أغرق جسدي وألصق ملابسي به، استقمتُ وجلستُ على الأريكة، وقلبي يطرق قفصي الصدري بعنف وكأنه يريد مغادرته... أسيطاردني هذا الكابوس اللعين من الآن وصاعدًا؟ ألم يكفِ اليوم العصيب الذي مررتُ به، هل ستصر تلك الجثة على ملاحقتي أينما ذهبت؟ سرت رعشةٌ في جسدي بمجرد تذكري لذلك المنظر، والآن صرخاته التي لا تزال تتردد على مسامعي وكأنها غادرت الكابوس لأرض الواقع. أتساءل عما حدث مع البقية في غرفة التحقيق، وإن كانوا قد توصلوا لجانٍ.

وكعادتي تصفحتُ هاتفي لأجده يكاد ينفجر من كثرة الرسائل والمكالمات الواردة، ولشدة إنهاكي فقد ارتميتُ على الأريكة وغصتُ

في بحار أحلامي... دون حتى أن أبدل ملابسي. عدة رسائل من أمي وملايين الاتصالات من (شوق) و(مجد)، هذا الثنائي الغريب الذي اجتمع على متن تلك الرحلة الأغرب... يا لحظوظنا السعيدة التي جمعتنا في مواقف لا نحسد عليها. أعدتُ الاتصال بهما لكن أيًّا منهما لم ترد، رميتُ هاتفي بعيدًا وعقلي ممتلئ بالأسئلة... ما الذي استدعانا المحقق لأجله إن لم تكن تلك الجثة؟

الساعة الآن التاسعة وبضع دقائق مساءً، قمتُ من مكاني وغسلتُ وجهي سريعًا... وفتحتُ حقيبة سفري لأخرج منها حاجياتي. تجمد الدم في عروقي، وبدأت يداي بالارتعاش... مستحيل!

سكين كبيرة ملطخة بالدماء، استقرت فوق ملابسي ولطختها! اللعنة، ما الذي أتى بهذه السكين هنا؟

لا لا لا، هذا كثير! فركتُ عينيّ لأتحقق من واقعية ما أرى، يا رب اجعله كابوسًا آخر... يا رب لم أعد أطيق المزيد من هذا. طرقاتٌ عنيفة متتالية على جرس الشقة ترددت بالأرجاء، لأسمع بعدها ما كان ينقصني:

«الشرطة، افتحوا الباب!»

عندها قرر عقلي التوقف عن العمل رسميًّا، والتسليم التام لما هو

قادم... تحركتُ وأنا أجر قدمي جرًّا نحو باب الشقة. فتحتُهُ دون تفكير لأرى (أبا تركي) بثوبه وشماغه الأبيض، متبسّمًا ومعه بعض رجال الأمن ورجال الطب الجنائي.

«معنا إذن نيابي بتفتيش الشقة سيد (عثمان)، هلا سمحت؟»

قالها وهو يريني الإذن المطبوع ليقتحم الرجال الشقة، واجتازوني دون أن تسنح لي الفرصة أن أتحدث... وما عساي أقول وأنا في تلك الحالة المزرية وشعري الفوضوي وعيني المستيقظتين للتو؟

كيف عساي أبرر وجود تلك السكين الكبيرة، التي كانت بمثابة هدية لهم دون أن يتعبوا نفسهم بالبحث عنها؟ دخل (أبو تركي) بعدهم مباشرةً ولحقتهم، وعقلي لا يزال مقفَلًا يأبى تفسير ما رآه للتو... ويأبى قبول أن كل ما مر به واقعٌ لا فرار منه!

رأيته يجلس القرفصاء أمام الحقيبة المفتوحة وهو ينظر لتلك السكين، مقطّبًا حاجبيه. ظلّ يتمعنها بصمتٍ بينما انتشر بقية الرجال في أنحاء الشقة، بحثًا عن دليل آخر غير الذي أهديته لهم بكل غباء... وما أدراني أن وصولهم سيكون حين فتحي للشنطة؟! يا الله أرجوك أعنّي فهذا كثيرٌ علي، أنا مجرد كاتب ومضيف بسيط... لم أخالف النظام في حياتي... لم يحدث كل هذا لي؟

أشار لفردٍ من أفراد الطب الشرعي ليضع السكين وبعض الملابس في أكياس الأدلة، ليحول بصره لي ويقول:

«(عثمان)، أنت رهن الاعتقال للاشتباه في ضلوعك بمقتل (مناور بن...)، كل ما تقوله يمكن وسيتم استخدامه ضدك في المحكمة، لديك الحق في البقاء صامتًا حتى حضور محاميك»

كان عقلي متوقفًا عن العمل حتى سمعت اسم القتيل، (مناور بن...)! نعم؟! إن كان هو الشخص الذي أعرفه بهذا الاسم فما دخله في كل ذلك، أكان هو القتيل؟ مستحيل! قد رأيتُ القتيل ولم أتعرف أنه (مناور)، هل كنت مشوّشًا وقتها ولم أركز؟

«أرجوك! أرجوك! لا دخل لي في كل هذا ولا أعلم عنه شيئًا! والله تلك السكين ليست لي وقد رأيتها قبل قليل...»

«حسنًا حسنًا يا (عثمان)، تستطيع أن تقول كل هذا في غرفة التحقيق... وليس أمام سكان العمارة. اهدأ حتى لا تحدث جلبةً وتجلب لنفسك الفضيحة»

قال هامسًا في أذني وهو يشد على يدي، وينظر لي بحزم.

ابتلعتُ ريقي ومسحتُ الدموع التي تساقطت على خدي، وقلبي ينبض مرتعدًا. ومن يلومني؟ وُضِعت الأصفاد على يدي واقتادني

أحد رجال الأمن لسيارة الشرطة بالأسفل، نظرتُ لهم بذعر وعيني تتساقط دمعًا، ورجل الأمن يسحبني وأنزل معه من الدرج... ثم أركب في الصف الخلفي من سيارة الشرطة. الآن أعرف شعور تلك السيارة المرعبة، عندما وُضِعت وتحركت السيارة للقسم بأقصى سرعة. ألصقت رأسي بالشِّباك الحديدية التي أحاطت بزجاج السيارة والخوف قد سيطر على كل أعضائي، كان خوفي الأكبر من أمرٍ واحد... الجهل! الجهل بما هو قادم وما تخبئه لي الأقدار من مصائب، ماذا بعد؟ أغلقتُ عينيّ وقد قرر عقلي التوقف عن التفكير، بعد أن سلمت أمري لمن هو أرحم مني بنفسي... ومن جميع الخلق. وكما قال الشاعر:

دع المقاديـر تجـري فـي أعِنّتهـا
ولا تبيتـنّ إلا خالـيَ البـالِ
مـا بـين غمضـةِ عـينٍ وانتباهتهـا
يغـيّر الله مـن حـالٍ إلـى حـالِ

هو وحده الكبير على الجميع، فالله أرحم من أن تضيع حقوق خلقه وهو الذي حرّم الظلم على نفسه... وكلت أمري لك يا رب.

رهن اعتقال

«حدّث العاقل بما يعقل يا (عثمان)، كيف تخبرنا أنت وحدك عن وجود جثة في الطائرة في حين لم نستدعِك للتحقيق فيها أصلًا... ولم نعلم عن وجودها... ثم نكتشف الجثة في الطائرة بعد ذلك في التفتيش بالحمام. ونجد سلاح الجريمة في حقيبة سفرك في اللحظة التي أتينا فيها لتفتيش الشقة؟!»

أملى عليّ (أبو تركي) الحقائق التي أعرفها مسبقًا، وهو يضع رجلًا على رجل مفرّقًا صور جثة القتيل والذي أقرّ أفراد الطب الجنائي بهويته... (مناور).

اعتدلتُ في جلستي بعد أن أمضيتُ في غرفة التحقيق ما يقارب الساعة، وفي الحبس ما يقارب الاثنتي عشرة ساعة. الصداعُ يغزو رأسي ودماغي لا يزال غير قادرٍ على استيعاب كل ما حصل، وبحق كيف أبرر حصول كل تلك الأشياء التي توجه التهمة عليّ بكل معنًى؟

تنهّدتُ بعمقٍ وأنا أقول:

«لم أكُن وحدي من رأى تلك الجثة، سأعيدها لك للمرة المليار... لقد رأتها المضيفتان (ماري) و(روان) فكيف...»

«وللمرة المليار سأقول لك إن جميعهم أنكروا ذلك، ولم يذكر أحدٌ منهم رؤيته للجثة على الإطلاق!»

قاطعني ثم عمّ الصمتُ غرفة التحقيق، وأنا أُغمِضُ عينيّ وأحرك رأسي للأعلى... على ذلك الكرسي الحديدي الذي افتقر لكل ما يشعر بالراحة... وتلك الغرفة المعتمة التي تدفع البريء حتى للاعتراف!

«(عثمان) صدقني، أنا هنا لمساعدتك ولإخراجك مما أنت فيه... لهذا أحتاجك أن تكون صريحًا معي وصادقًا»

«أقسم لك أن كل كلمةٍ خرجت من فمي هي الحقيقة! وأولئك الملاعين لا أعلم لِمَ أنكروا رؤيتهم للجثة، فقد اتصلت (روان) المشرفة على الطيّار وأخبرهم أن لا يفعلوا شيئًا حتى نهبط وستتولى الشرطة الأمر. وتستطيعون سؤال الراكبة (شوق) فقد منعها المضيف (رويد) من استخدام الحمام ثم شرحت لها كل ما حدث! ولهذا أنا أسألك طيلة اليوم، ما السبب الرئيسي لتحقيقكم معنا إن لم تكن الجثة؟ لابد وأن الطيار قد أخبركم بمشكلة أمنية لتحققوا معنا فما هي؟ حتى أستطيع أن أدافع عن هذه التهمة التي التصقت بي»

قال (أبو تركي) وهو يعدل شماغه:

«فعلًا، اتفقت (شوق) مع روايتك وقصتك إلا أنها لم ترَ الجثة

وأنتَ من أخبرتها بالأمر كله... وعندما منعها (رويد) من استخدام الحمام فقد كان وقت الهبوط وعليها العودة لمقعدها»

قلتُ ممتعضًا:

«وهل صدقته ببساطة؟! أقول لك يا حضرة المحقق إن هذه مكيدةٌ مدبّرةٌ لي!»

«ولِمَ يدبرون لك هذه المكيدة؟ وكيف اتفق جميعهم على عدم وجود قصة الجثة هذه حتى الطيّار؟ أتعلمُ أن ما أبلغني به الطيّار قبل الهبوط، والسبب الذي استدعيناكم لأجله كان لوجود ورقة بكابينة القيادة تهدد باختطاف الطائرة... وكنتَ أول من نحقق معه وذكرتَ أمر تلك الجثة فتوجه التحقيق لمسارين كلاهما غايةٌ في الأهمية»

«وماذا حدث بموضوع التهديد باختطاف الطائرة؟ هل جدّ جديدٌ حوله أو علمتم هوية باعث التهديد؟ وإن لم تجدوا شيئًا فهذا يعني أن من الممكن أن القاتل قام بهذه الخطوة للتمويه ورمي رجال الشرطة بعيدًا عنه»

سألتُهُ والتزمَ الصمت، بالطبع لم تكن تلك المرة الأولى التي تخطر له فيها تلك النظرية، بل يبدو أنه فكر بها مرارًا وتكرارًا... لكن بقية الأشياء والأنذال أولئك الذين لا أستبعد أنهم عصابةٌ قد قتلوا (مناور)

ويحاولون إلصاق التهمة بي لسببٍ ما، قد زرعوا الكثير من الأدلة التي تدينني... اللعنة.

«حسنًا (عثمان)، أخبرني عن علاقتك مع (مناور) منذ دخلت التدريب وحتى قبل مقتله... كيف كانت طبيعة علاقتكما؟»

«كان زميلي في ضيافة الطيران ومعي في دفعة التدريب كأي مضيف آخر في المجال، علاقتنا رسمية للغاية ومهنية وقد حدث هذا بعد مشاجرةٍ كبيرةٍ أعتقد أنك سمعت بها قبل دخولي عليك من جميع المضيفين الذين تحدثت معهم»

«لا تتدخل في أمور لا تعنيك، أجب بحجم السؤال... أريد سماع القصة منك»

«حسنًا، (مناور) كان معنا في دفعة التدريب أنا و(شوق). كان يكثر من الأسئلة الغبية أيام التدريب وذلك لتفكيره المفرط في كل تفصيل، لكن ذلك لم يضايقني البتة وقد كانت علاقتنا رسمية حتى تخرجنا من التدريب... وعندها بدأ يظهر جانبه الأحمق. كان يحب فتاةً معنا بالدفعة وقد كانت هي تكثر الحديث معي والمزاح وكانت تراني كصديقٍ على الأرجح، وقد كانت تبادله الحب كما يبدو لكن كثرة مزاحها وحديثها معي وذكرها لي أمامه قد ضايقته... حتى جمعتنا

رحلة وكان بجواري. سارت الرحلة بشكل طبيعي حتى مد يده فجأة وصفعني بلطف، ناصحًا إياي أن أبتعد عن حبيبته وأنها تخصه... وأنا شخصٌ أكره الملامسة فنهرته عن لمسي لكنه أعاد صفعي بلطف. وهناك صفعتُهُ بقوة وبدأ الاشتباك حتى فرقنا المضيف المشرف، وقلتُ له بصرامة إنها لا تعني لي شيئًا ولا أنافسه عليها وألا يحدثني بعد الآن»

تلاعب المحقق بلحيته الرتيبة قبل أن يسألني:

«وتلك الفتاة ليست سوى (شوق)، صحيح؟»

«نعم صحيح، (شوق) هي الفتاة التي كان يحبها (مناور)»

«متى حدث ذلك الشجار؟»

«قبل شهر»

«ماذا عن الرحلات التي جمعتكما بعد ذلك؟ هل حصل أي شيء بينكما؟»

«لا، أصبحنا نتعامل برسمية ومهنية وقد كانت الرحلات قليلةً جدًّا فقد كنا نتحاشى وجودنا في الرحلة نفسها... وغالبًا ما يفرقنا المضيفون حين سماعهم لشجارنا فيرمون أحدنا بالخلف والآخر بالمقدمة»

عادت الغرفة لصمتها المقلق، وغاص المحقق في دوامة أفكاره بعد تلك القصة التي ما كانت إلا لتثبّت التهمة عليّ وتعطيهم الدافع لارتكاب الجريمة. الصراحة لم أعد أطيق التفكير في العواقب فلا شيء يمكن أن يحصل لي أسوأ من اعتقالي، أسندتُ ظهري على المقعد وأنا أبادل المحقق النظر... كان يتفحصني بتمعن.

«وكيف لم تتعرف على الجثة بمجرد رؤيتك لها؟ ولم تعرف حتى أخبرناك أنها تخص (مناور) وأريناك إياها ثانيةً في المشرحة»

«هذا هو السؤال الذي يحيرني يا حضرة المحقق، لا أعلم أكانت رهبة الموقف هي التي أفقدتني التركيز؟ فكما تعلم أن تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها قتيلًا على أرض الواقع»

وقفَ المحقق من على كرسيه وطرقَ الباب، ليأخذني العسكري ويتجه بي للحبس المؤقت... لأسأله قبل أن يقتادني:

«إلى متى سأظل في الحبس؟»

«حتى تثبت براءتك، وجود سلاح الجريمة في حقيبتك أمرٌ لا يمكننا الإشاحة بالنظر بعيدًا عنه. اذهب الآن فهناك زائرون بانتظارك»

زفرتُ بعمق وأنا أغادر غرفة التحقيق، أعتقد أن هذا سيصبح روتيني اليومي حتى يأتي فرج الله.

«لديك زوار، هل ترغب برؤيتهم؟»

سألني العسكري بصرامة، متوقّفًا عن المشي في مفترق طرق... إما أن يكمل الطريق للحجز المؤقت أو أن يذهب لغرفة الزيارة. أومأتُ له وقادني لمقر الزيارات، نظرتُ عبر الزجاج الفاصل المؤدي إلى هناك... وكانت مفاجأتي حين لمحتُ زمام أنفها الذي لا يمكن أن تفوته العين! سحقًا، من الذي أخبرها أني هنا؟! جلست إلى الطاولة المستديرة وهي تطرقها بأظافرها، محركةً عينيها الواسعتين حول الغرفة بقلق... وأنا أشعرُ بدقات قلبها القلق من مكاني البعيد.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

لم أعرف كيف أتصرف، لم أرغب أن تراني وأنا بتلك الهيئة وفي ذلك المكان.

«هلّا حسمت أمرك؟ لدينا عمل نقوم به بدل الوقوف هنا، أتريد رؤيتها أم لا؟»

قال العسكري بفظاظة، عابسًا مقطّبًا حاجبيه.

ترددتُ لحظات ثم طلبتُ منهُ:

«أريد أن أطلب منك طلبًا وأرجوك لا ترده لي، هلا نزعت هذه الأصفاد؟ تلك خطيبتي ولا أريدها أن تراني بهذا الشكل. أرجوك»

«يا سيد، لا يمكننا مخالفة الإجراءات إلا بموافقة من جهة عليا. أرجوك لا تصعّب عملي وتتعبني»

أجاب بكل صرامة.

«انزع الأصفاد، لا مشكلة»

صرخَ (أبو تركي) متكئًا على باب غرفة التحقيق، مومئًا للعسكري الذي نفّذ أوامره مباشرةً.

استغربتُ تعاطفه معي وقتها، قلتُ له والعسكري يقودني للداخل:

«شكرًا لك»

لم يرد بل استدار ودخل غرفة التحقيق، ولم أكترث فلدي ما هو أعظم... ما عساي أقول لها الآن وكيف سأشرح؟ وقعتْ عينُها علي ووقفتْ وكانت على وشك احتضاني، لولا العسكري الذي نهرها قائلًا:

«ممنوع اللمس سيدتي، أرجوك»

أطاعتهُ وعادت للجلوس، وعيناها الواسعتان مثبتتان عليّ والقلقُ يملؤهما... لأتبسّمَ رغمًا عن إرادتي كما هو الحال عند وقوع عيني عليها كل مرة. كيف بحق، كيف لعينيها وحاجبيها الحادّين المرسومين

وشعرها الأسود المائل للبني أن يكون لها تلك القوة الهائلة... التي تجبرني على التبسّم دومًا؟!

«هل أنتَ بخير؟»

كان سؤالها الأول كما هو متوقع، وعيناها مثبتتان عليّ والرغبة تنتابني أن ألامس يديها وأشد عليهما بقوة... أن أرتمي في حضنها لتخبرني هي أن كل شيء على ما يرام.

«لا تقلقي (أريج)، عدة أيام وستنتهي هذه المهزلة وتثبت براءتي من كل هذه التهم الباطلة...»

قاطعتني وتحولت عيناها الواسعتان اللتان امتلأتا رحمةً قبل دقائق، لنظراتٍ حادة تحركت للجهة اليمنى... وعبوسٍ فتّاك وقع على شفتيها وهي تقول:

«ومتى كنتَ تنوي العزم على الاتصال بي وإخباري؟ لقد أقلقتني عليك ورحتُ أسأل عنك كل شخصٍ يعرفك على الكرة الأرضية!»

هي وحدها كانت تستطيع فعل ذلك، أن تتحول عيناها الواسعتان المليئتان بالرحمة لعينين حادتين ونظرةٍ باردةٍ قاتلة... في لحظة.

مددتُ يدي وكدتُ ألامس يدها حتى تذكرتُ منع العسكري، أرجعتُها بعد أن كاد يقطعها بنظراته الحادة... لأُعيد النظر لها وهي لا

تزال عابسةً وأقول:

«لم أرغب أن أقلقك عليّ وأدخلك معي هذه الدوامة التي ستنتهي قريبًا بإذن الله»

عدلتْ زمامَ أنفها وعقدت ذراعيها وهي تقول:

«ومع ذلك أقلقتني! المهم أخبرني أنت، ما الذي يحدث؟! لقد سألتُ الجميع عنك حتى دلتني المحامية (مجد) على مكان احتجازك وأبت إخباري بشيء حفاظًا على خصوصية الموكّل أو شيء من هذا الهراء»

أغمضتُ عينيّ وسحبتُ نفسًا عميقًا محاولًا قدر المستطاع أن أتمالك دموعي، فتحتُ عينيّ وهززتُ رأسي وأنا أقول لها:

«(أريج)، إني خائف، كذبتُ حين قلتُ إن كل شيء بخير! أنا لستُ بخير! يتهمونني بجريمة قتل وأنا والله لا أفعلها، أنا لا أجرؤ حتى على إيذاء نملة. كل دقيقة تمر عليّ في هذا المكان كالساعة، قلبي لا يكفّ عن النبض بعنف... لقد وضعوا لي سلاح الجريمة في شنطتي ونفوا رؤيتهم للجثة بالطائرة أ...»

«(عثمان) (عثمان)، هيه انظر لي، انظر لي»

قاطعتني وقدمها تلامس قدمي، في محاولةٍ امتلأت حنانًا منها

لتخفيف الأمر عني... وقد رغبت أن تحتضنني وتغمرني بصوتها المطمئن لكنها لا تستطيع وكم كان هذا مؤلمًا. نجحت الدمعة في مغادرة عينيّ بعد تكبد إخفائها، لم أُرِد أن أظهر ضعفي أمامها في الوقت الذي أحتاج فيه أن أكون قويًّا... لكن الموضوع برمته كان أكبر مني ومنها.

«انظر لي يا (عثمان)، فقط تخيل أن يدي هذه تلامس قلبك... اتفقنا؟»

ثبتُّ عينيّ عليها ونظرت ليدها الناعمة التي طالما أحببت أن تملأها بالخواتم، أومأتُ لها وقد فعّلت سحرها للمرة الثانية وهدأ خوفي قليلًا... سحرها الذي ألقتهُ عليّ منذ التقيتها لأول مرة. مسحتُ دمعتي سريعًا وزفرتُ بعمق، محرّكًا نظري حول الغرفة الفارغة والتي اعتقدتُ أن تمتلئ بالمساجين الذين أتى أهلوهم لزيارتهم... لكن على ما يبدو أن هذا المشهد لا يُرى في الحجز المؤقت.

«احكِ ما جرى لك بالتفصيل، ولا تغادر منه شيئًا يخيفك... تحدث وأخبرني بالقصة من البداية»

أخبرتُها بكل شيء منذ أقلعت الطائرة وحتى تلك اللحظة التي زارتني فيها، وحين كنتُ على وشك الانتهاء... لمحتُ أحد العساكر

يهرع ويهمسُ بأذن ذلك الذي كان يرافقني. ولما انتهيتُ اقترب مني وقال:

«المحامية التي طلبتَ توكيلها بانتظارك في الخارج»

حوّلتُ نظري لـ (أريج) التي أومأت لي وهي تقول بثقة:

«سأتركك الآن وتذكر أن قلبي دائمًا معك، لا تخف ولا تقلق... اشغل وقتك القليل القادم الذي ستقضيه هنا بالتفكير بي وسيتلاشى خوفك»

غمزتْ لي وأطلقت ضحكتها التي تعلق قلبي بها مبرزةً أنيابها، كم كنتُ أحب نرجسيتها على نقيض أي نرجسية... هي وحدها يحق لها ذلك. وبربكم، من يلومني وقلبي يتفطّرُ عشقًا حين النظر لعينيها فقط... فماذا عن بقية ملامحها الأخّاذة؟

عدّلت حجابها وحملت حقيبتها، وأرسلت لي قبلاتها الطائرة وهي تغادر الغرفة لأقول لها:

«(أريج) لا تدعي أمي أو أحدًا من أهلي يقلق، وإن سألوا عن اختفائي فاختلقي أي كذبة»

أجابتني وهي ترفع يديها:

«لا تقلق، سأتصرف معهم»

رحلت وأنا أتمنى أن تمكث وقتًا أطول. ما أسخف الحب... ليس الأمر وكأني متهمٌ بجريمة قتل وأتمنى التخلي عن وقتي مع المحامية لأجلس مع ذات الزمام. لحظاتٌ ودخلت (مجد) بقوامها الرفيع وعينيها الصغيرتين اللتين اختبأتا خلف نقابها، لتحُتّ الخُطا بملفها الأسود الذي كانت تحمله... متأهّبةً أيما تأهب لمواجهة قضيتي. وضعت الملف على الطاولة وجلست أمامي وهي تقول:

«أنتَ محظوظٌ يا (عثمان)»

حرّكتُ نظري حول الغرفة وأنا أتهكم:

«حقًّا؟ لا أعتقد ذلك»

هزّت رأسها وهي تقول:

«كلّا أيها الأحمق، لا أقصد ما أنت فيه فهذا بعيدٌ كل البعد عن الحظ... أنا أقصد تلك الفتاة التي تحبك وتكبدت عناء السفر والقدوم إلى (...). أرجوك حافظ عليها ولا تفرّط فيها!»

لم أكُن لأعارضها فما قالتهُ صحيح، وحدها (أريج) هي التي تحمل لي ذلك القدر الكبير من الحب لتفعل ذلك.

«أما هذه فأنا محظوظٌ فيها حقًّا»

فتحتِ المحامية الملف الأسود قائلةً:

«حسنًا لا وقتَ لدينا لنضيّعه، سأعطيك أهم المستجدات فهناك الكثير»

أومأتُ لها وأكملت:

«لقد ألقوا القبض على (شوق) وهي الآن في الحجز المؤقت وقيد التحقيق معها، لقد وجدوا في جهازها رسائل تهديد لـ(مناور) وأخرى مرسلةً على جوالك تخبرك فيها بشدة رغبتها في قتل (مناور). أريدك أن تركز معي وتجيب عن أسئلتي بكل شفافية حتى أستطيع بناء الدفاع بكل ما أمكنني ربي...»

لم أستمع لما قالته بعد ذلك فقد سرح عقلي بعيدًا، كانت تلك ضربةً قاضيةً أخرى... لقد حلت اللعنة علينا رسميًا!

«اللعنة اللعنة اللعنة، كيف يحصل هذا؟ كيفف؟»

صرختُ بأعلى صوتي وأنا أضرب الطاولة بقبضتي، مما جعلَ العسكري يقترب مني ليهدئني... إلا أن (مجد) أشارت له وأومأت وهي تقول:

«(عثمان) (عثمان)، لا وقت للسخط والنحيب! ركز معي! علي أن أبدأ بخطة الدفاع فإما أن تستمر بالجزع وندب الحظ ويأتي وقت المحاكمة وأنت تقشر البرتقال ليحكم عليك القاضي، أو أن ندرس

خطة جيدة للدفاع بما لدينا من حقائق... الأدلة لا تبشر بخير وأنت تضيع الوقت»

كان كلامها بمثابة صفعةٍ فلم أتوقع أن أرى جانبها الصارم هذا أبدًا، هدأتُ من روعي مغمضًا عينيّ ساحبًا كمية كبيرةً من هواء الغرفة... لأطلقه بكل توتر وقلق.

«حسنًا كما قلت، هم يعتقدون أنكما خططتما هذه الجريمة معًا بدافع حبك لـ(شوق) وانتقامك من هذا الرجل المدعو (مناور)... أحتاج منك الآن أن تجيبني. هل أرسلت (شوق) هذه الرسالة لك وهل قرأتها؟ حتى لو كان من باب المزاح والدعابة، عليّ أن أعلم كل شيء»

«للأسف نعم، لكنها كانت مجرد دعابة ولم يأخذها أحدنا على محمل الجد»

كتبت بعض العبارات في ذلك الملف ثم سألتني:

«حسنًا، هل كنت أنت و(شوق) في علاقة؟ عليك أن تجيبني بكل صراحة ولا تقلق فكل ما يقال لي تحت قانون حماية الموكل والمحامي»

أجبتُها:

«لا طبعًا، (شوق) مجرد صديقة وزميلة عمل ولم أدخل معها في علاقة حب قط... وهذا الشيء الذي لم يفهمه الأحمق (مناور)... أستغفر الله رحمه الله»

«حسنًا كان عليّ أن أسأل فقط. الآن أخبرني... هل لحظتَ أحدًا من الركاب يستمع لما قلته للمضيفين عن الجثة؟ حاول أن تركز بما حدث ذلك الوقت، لو أن أحدًا منهم استمع لما قلت فسيساعدنا كثيرًا في المرافعة»

غصتُ في أعماق الذاكرة ودماغي يعمل بكل ما أوتي من قوة، حتى شعرتُ بإرهاق خلاياه.

«لا أحد، لا أتذكر أن أحدًا سمعنا فقد كان الجميع في مقاعدهم إما نائمين أو منشغلين... حتى أنت (شوق) لاحقًا لاستعمال دورات المياه»

استمرت بالكتابة ثم سألتني وحدقتا عينيها تصغران أكثر خلف النقاب:

«الآن حقيبة سفرك، منذ صعدت على الطائرة فكم مرةً فتحتها لتخرج منها أي شيء؟»

أجبتُها وأنا أريح ظهري على الكرسي:

«لم أفتحها أبدًا هذه عادتي عند صعود الطائرة فكل ما أحتاجه يكون في يدي مسبقًا»

«الخزانة العلوية التي احتوت شنطتك، هل فتحها أحدٌ من الركاب؟ أنا أسألك سؤالًا دقيقًا فركّز، لا أقصد الشنطة، بل الخزانة العلوية كلها»

بضع لحظاتٍ للتفكير لكن تلك الرحلة كانت هادئةً جدًّا، حتى أن أحدًا لم يصدر صوتًا فيها... فأجبتها:

«لم يفتحها أحد، وقد كنتِ بجواري طوال الرحلة أصلًا فلا أعتقد أنك لاحظتِ أحدًا»

عارضتني قائلةً:

«لم أكُن بجوارك طوال الرحلة، كنتُ معك حتى ذهبتَ للحمام ثم رأيتك عند النزول من الطائرة... لربما وضع أحدهم سلاح الجريمة في الوقت الذي كنتَ أنتَ فيه في الحمام»

«وهل لاحظتِ أحدًا يقوم بفتح الخزانة العلوية في غيابي؟»

هزّت رأسها بالنفي وهي تكتب في ملفها الأسود وتقول:

«لا، ولكني أخذتُ غفوةً فلعل أحدهم فتحها دون علمي»

عمّ الصمتُ غرفة الزيارة، وقد غاصت (مجد) في محيط أفكارها ولم أرغب بمقاطعتها... ثقتي في الله ثم في مهاراتها فلم تكُن بالمحامية الهيّنة.

«ماذا لو أدليتِ بشهادتك أمام القضاء أنك كنتِ بجواري تلك الرحلة وستكون حجة غياب؟»

«سيتم الطعن في الشهادة فأنا المحامية الموكلة بالمرافعة عنك، وشهادتي غير معتبرة... ناهيك عن أني لم ألازمك كل الوقت»

تذكرتُ وقتها سؤالًا مهمًّا فأسرعتُ بطرحه:

«هل كان (مناور) أحد الركاب في الطائرة أصلًا؟»

اكتفت بالإيماء وهي لا تزال تفكر. هذا غريب، فلم أره طيلة الرحلة حتى ظهر في ذلك الحمام قتيلًا.

«علينا أن نفكر الآن بالجاني الحقيقي، ولنقل مبدئيًّا إن طاقم المقصورة وحتى الطيار ومساعده لهم يدٌ في محاولة توريطك... كان المضيفون في تلك الطائرة (ماري) و(رويد) و(روان) و(فراس) هل تعرف أحدًا منهم غير (ماري)؟»

وضعتْ صورهم أمامي وتفحّصتُ وجوههم اللعينة قبل أن أهز رأسي بالنفي قائلًا:

«فقط (ماري)، ولأن الطاقم يحمل الكثير من المضيفين فلم أصادف أحدهم في رحلة... وقد يحدث هذا مع العدد المهول للطاقم. آهٍ لو تقع

تلك اللعينة (ماري) في قبضتي... ماذا فعلتُ لها وللبقية ليورطوني وينفوا ما حصل لي؟!»

«هل حصل بينك وبين (ماري) أي شجارٍ ولو بسيط؟»

«بالطبع لا وهذا ما أستغربه! ألا تتذكرين كيف كانت لطيفةً معي في الطائرة؟ علاقتنا كانت جيدةً جدًّا ولم يحصل بيننا أي خلاف البتة، لقد تعبتُ من إعادة هذه الأجوبة فقد سألني إياها المحقق قبل قليل... أريدُ فقط العودة لبيتي والاستلقاء على الأريكة لأنعم بقليلٍ من راحة البال... لقد تعبتُ يا (مجد)»

أمسكتُ رأسي بكلتا يدي وأغمضتُ عينيّ فكل ذلك كان كثيرًا عليّ، كل ما أردتهُ هو قضاء بعض الوقت في مدينة (...) للتنزه... آهٍ كم أحب تلك المدينة بطرقها وحتى ازدحامها وحرارة مناخها... ليتني لم أذهب واستقررت في شقتي وقضيتُ إجازتي السنوية مشاهدًا مسلسلًا.

«أعرفُ يا (عثمان) والله، عليك أن تتحلى بالصبر والقوة فأنت صاحب الحق... لا تستسلم الآن وتدع أصحاب الباطل ينتصرون. توكل على الله وركّز معي، ماذا عن (ماري) و(مناور)... هل من أي خلافاتٍ بينهم فيما سبق؟»

هززتُ رأسي الذي غزاهُ الصداع بالنفي وأنا أقول:

«لا، كانت علاقتهما عادية جدًّا»

قلبت الصفحة في ملفها الأسود وقالت:

«ماذا عن الطيار (نيكولاس) ومساعده (عصام)؟ هل تعرفهما؟»

وبخيبة أملٍ نظرتُ لوجوههما تلك وأنا أتمنى أن أكون على معرفةٍ بأي منهما، فقد قضيتُ كل جلستي نافيًا لكل أسئلتها. لا أحد، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها وجوههما. رفعتُ بصري نحوها وأنا أهز رأسي لتومئ لي وتُعيد التقليب في الملف الذي بيدها بضع لحظاتٍ.

«حان وقت السؤال الأهم، كيف استطاعوا ضمان حجزك في تلك الرحلة بالذات؟ كيف علموا أنك ستكون على متنها وتيقنوا من ذلك؟ هذا إن كان توريطك مخطّطًا له من قبل ولم يأتِ عرضيًّا وقرارًا مفاجئًا حين رأتك (ماري) في تلك الرحلة. أخبرني ما الذي جعلك تسافر إلى (...) وتختار تلك الرحلة، ومن كان يعلم بذهابك؟»

«سحقًا، لم أفكر بهذا من قبل! أما سفري فقد كان هذا وقتَ إجازتي السنوية وقررتُ الذهاب للتنزه في (...)، وليتني لم أذهب... لحظة!»

توقفتُ عن الحديث فجأةً وأنا أفكر بعمق، فهناك أمرٌ آخر لم نفكر به!

«(عثمان)، ما الأمر؟ أرجوك قُل فقد يساعدنا تفكيرك كثيرًا»

رأيتُ عينيها الصغيرتين تلمعان، وكلها ثقةٌ أن ما سأقوله غايةٌ في الأهمية.

«كيف اجتمعنا كلنا في تلك الرحلة المشؤومة؟ إنها لمصادفةٌ نادرةُ الحدوث أن أكون في رحلةٍ مع أربعة أشخاصٍ أعرفهم! (شوق) وأنتِ و(ماري) و(مناور) بعد أن علمتُ منك قبل قليل أنه كان أحد الركاب، فلنستبعد (ماري) كونها مضيفة ومن الممكن وجودها في تلك الرحلة... لكن ماذا عن البقية؟»

برقت عينا المحامية حتى كاد الشعاع يعمي من بالغرفة جميعًا، اعتدلت في جلستِها وسألتني باهتمام:

«أخبرني مجددًا عن رحلتك تلك بـ(...)، كيف حجزتها بالتفصيل؟»

اتكأتُ بذراعيّ على الطاولةِ مُجيبًا إياها:

«لا شيء يذكر، دخلتُ تطبيق الطيران للحجز بالخصم الخاص بالمضيفين... وحجزتُ الفندق واستأجرتُ السيارة لتعينني على

التنزه. ثم أقنعتني (أريج) بالعودة مبكّرًا قليلًا للانتهاء من أمورٍ مهمة تخص زواجنا، وهذا كل ما في الأمر»

نظرت لي بخيبة أمل وهي تقول:

«الحال ذاته معي فقد سافرتُ للتنزه، وكنتُ في وقت عودتي المخطط له بالضبط... أعتقد أن وجودنا في تلك الطائرة محض مصادفة»

نظرتِ المحامية لساعتها وجمعتِ الأوراق واضعةً إياها في الملف الأسود وهي تقول:

«عذرًا (عثمان)، عليّ الذهاب للجلوس مع (شوق) فأنا وكيلتها أيضًا... وسأسألها عن رحلتها كيف كانت ولِمَ سافرت أصلًا. ابقَ قويًّا أرجوك»

قامت عن الكرسي وهرعت للخارج والكثير من الأسئلة تغزو عقلي، ما الفائدة من وجود (مجد) إن كانوا يريدون إيقاع التهمة بي وبـ (شوق) فقط؟! يبدو أنه فعلًا مجرد مصادفة. ترى، ماذا تفعلين الآن يا (شوق) في غرف الاستجواب... آهٍ كم أرغبُ بالخروج من هذا المكان لأرى ما حدث مع الجميع.

حيطان صامتة

أربعُ حيطان صامتة سوداء، لو نطقت لبكت دمًا وألمًا على أولئك الذين احتوتهم يومًا... بمختلف أشكالهم وأعمارهم وألوانهم. صمتُها قاتل، عتمتها مؤرقة، تشققاتها مقلقة... والأشد مصيبةً من كل ما سبق أن تلك الجدران تعلم تمام العلم أن من حوتهم يومًا سيمكثون مدةً طويلةً فيها! بعضهم يغادرها فرِحًا مستبشرًا بعد أن تم الإفراج عنه، وآخرون يغادرونها لتحتويهم جدران أخرى أسمك وأقوى وأشد عتمة... ليقضوا فترةً أطول فيها. أحيانًا أعتقد أنها تنوي المساعدة وتبذل قصارى جهدها لإخراج من بداخلها، وأحيانًا أعتقد أن اللعينة تستمتع وتنتشي بحبس الناس فيها... جدران الحبس المؤقت قبل المحاكمة. لم أكُن وحدي داخلها بل عدة أشخاص في انتظار محاكماتهم بفارغ الصبر، ولم يهتم أحدنا بتكوين الصداقات ولم نُطِق بعضنا البعض أصلًا... فكان الصمتُ رفيقي تلك الليالي السود الطوال.

أسمعُ صوت سلسلة المفاتيح، ووقع أقدام يدب على الأرض دبيبًا نحو باب التوقيف... خيرًا اللهم اجعله خيرًا... ماذا يريد العسكري فهذا الوقتُ ليس وقت الوجبات أو الزيارات؟

«(عثمان بن...)»

صرخ العسكري وهو يفتحُ باب الزنزانة. كان يعرفني إلا أن وظيفته حتمتْ عليه مناداة الأسماء بتلك الطريقة. وقفتُ رافعًا يدي ليتفحصني بنظراتٍ قاتلة، لم أرَ منها طيلة الأيام الماضية سوى القسوة... لعل تلك وظيفته فما يراه يوميًّا يشيب الرأس.

«إفراج»

لحظة، أما سمعته صحيح؟! تسمّرتُ مكاني وعقلي لا يستوعب ما يسمعه، وكأنه استثقل عليّ الفرحة من شدة ما عاشه الأيام الماضية... من تحقيقاتٍ وزياراتٍ وأسئلة وقلق.

«هل أنت أطرش؟! اخرج هيّا أم تريد المكوث هنا، سيكون هذا من دواعي سروري!»

أنا لستُ متوهّمًا إذًا، تساقطت الدموع على خدي وسجدتُ لله شكرًا... وكم وددتُ لو لم ينقطع ذلك السجود أبدًا. الحمدلله! غادرتُ الزنزانة سريعًا وألقيتُ نظرةً خاطفة لم تطُل، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. لحظة، كيف يتم الإفراج عني وقد وجدوا سلاح الجريمة بحوزتي؟ يا رب لا تجعل هذا أحد أحلامي السعيدة التي أستيقظُ منها وأنا لا أزال في الزنزانة!

قابلتُ (أبا تركي) بالخارج واقفًا بانتظاري، ليشير لي بالتحرك خلفه لغرفة الاستجواب قائلًا:

«لعلك تتساءل عن سبب الإفراج عنك فتعال خلفي لأطلعك»

تبعتُهُ لغرفة التحقيق وجلس مكانه المعتاد، وجلستُ أمامه لأول مرة وأنا أشعر بالارتياح... ما الذي فعله بي هذا المكان؟

«لا أثر لبصماتك على السلاح ودافع ارتكاب الجريمة ليس بقوي كفاية ليبقيك بالحجز، أتى الأمر بالإفراج عنك مع تطبيق منع السفر والإلزام بالحضور عند طلب الشرطة مع حضور جلسات المحكمة»

قالها المحقق والحيرة تخالج كلماته، وكأنه غير مقتنع بأمر الإفراج... ليُكمل:

«هل أنت على معرفةٍ بـ(عاطف)؟»

أجبتُهُ هازًّا رأسي بالنفي:

«لأول مرة أسمع هذا الاسم في حياتي»

أومأ وهو يغمض عينيه ثم أخبرني:

«لـ (مناور) شقيقٌ واحدٌ فقط أكبر منه، وهو قريبه الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة... اسمه (عاطف)»

لا أعلم لِمَ أخبرني بتلك المعلومة بالذات، لعله أراد تذكيري لكني لم أعرف (مناور) جيدًا حتى أعرف أخاه (عاطف) هذا... أو أراد أن يرى ردة فعلي حين ذكره اسمه... من يعلم؟!

قام من مكانه وأشار لي بالمغادرة قائلًا:

«أنتَ ممنوع حتى من السفر لمدينة أخرى، حتى الانتهاء من هذه القضية... تستطيع المغادرة أيها الكاتب»

«ماذا عن (شوق)، هل تم الإفراج عنها أيضًا؟»

سألتُهُ وأنا أغادر معه الغرفة، ليضع ذراعه حولي ويهمس بأذني:

«من المفترض أن يعلمك كل ما مررت به لهذه اللحظة الاهتمام بشؤونك فقط، وعدم إقحام مشكلات الآخرين في حياتك... هذه نصيحةٌ من شخصٍ يكبرك سنًّا ورأى الكثير في هذه الحياة. وعليك أن تحضر للمحاكمة وسيصلك الموعد والوقت على جوالك»

أومأتُ بتوتر وغادرتُ على عجل، وكأني خفتُ لو مكثتُ ثانيةً أخرى أن يعيدني للحبس. أفهمُ من كلامه أن (شوق) لا تزال محبوسة، لِمَ؟ هل وجدوا عليها دليلًا آخر غير رسائل التهديد؟ أخذتُ حاجياتي من العسكري عند بوابة الخروج من القسم، وضعتُ هاتفي في جيبي ومفاتيحي وخرجتُ أخيرًا لتلامس الشمس بشرتي... ويداعب الهواء

الحار وجهي ويدي في ذلك الوقت. تنفستُ الصعداء وما هي إلا لحظاتٌ حتى سمعتُ صوتًا مألوفًا لم أتوقع سماعه، معقول؟ ما الذي أتى به إلى هنا؟

«ليس هذا العشم يا حضرة الكاتب، أنا آخر من يعلمُ أنك شرّفت الأوساط الأمنية وكان لك شرف مقابلة المحقق (أبي تركي)»

قال بصوته البارد الذي طالما خيّم الحزن عليه كما ارتأيت، نظرتُ لليمين لأرى الأربعيني ذا اللحية الكثيفة التي تخللها الشيب.. بطوله المتوسط وبشرته الحنطية. شقّت الابتسامة وجهي ومددتُ يدي لأصافحه، فما كان منه إلا أن سحبها واحتضنني... لأقول متفاجئًا من فعله ذاك:

«كلما رأيتك أُصبت بالحيرة، فهل أراك كما أصفك في رواياتي شابًا في منتصف العمر... أم أراك بصورتك الحقيقية التي تقدمتْ في السن أيها المحقق العجوز؟!»

ضحكَ ضحكته المكتومة المعتادة، ليقول وهو يقطب حاجبيه ويعدل عقاله:

«بالمناسبة، أنا لا أتذكر (أسرار) بتلك الطريقة المبالغ فيها في رواياتك! لقد أخطأت التقدير»

ربتُّ على كتفيه قائلًا:

«قل ذلك الكلام لملامحك التعيسة البائسة، وذبول عينيك كل مرةٍ تحكي لي فيها قضية من قضاياك يا (أديم)... المهم كيف عرفت ما حصل؟»

«أهذا سؤال تطرحه؟ لقد أمضيتُ الكثير من الوقت في التحقيق والسلك الأمني فلا شك أن الأخبار ستصلني بنهاية المطاف. والمحقق (أبو تركي) من أعز أصدقائي، وجب عليك الاتصال بي مباشرةً دون تردد... عارٌ عليك أيها الكاتب»

رفعتُ كتفيّ وحاجبيّ ليسبقني المحقق (أديم) بالقول:

«يبدو أنك متعب من التوقيف والسين والجيم فلن أكثر عليك، هل اتصلت بأحدٍ ليُقلّك؟»

هززتُ رأسي وأنا أقول:

«الحقيقة كنتُ سأستقل سيارة أجرة، لا طاقة لي بسؤال الأقارب أو الأصدقاء... كل ما أريده هو النوم العميق في سريري»

قال وهو يشير لسيارته:

«هيا إذًا معي، لن أقبل إلا الموافقة منك... أمامي هيا!»

بدا صارمًا في عرضه ذاك ولم أكُن لأعارضه فلا طاقة لي. أومأتُ

له ومشينا تحت الشمس، وبمجرد أن طرح سؤاله الأول عن القضية فانفجرتُ أمامه... لأحكي له كل ما حصل على الرغم من إحساسي القوي أنه يعرف أكثر مما أعرف. ركبنا السيارة وكنتُ لا أزال أتحدث وأتحدث، مفرّغًا طاقة الكتمان التي داهمتني الأيام الماضية... وبمجرد فراغي من سرد المعاناة قال لي وهو يربت على كتفي:

«أعلم أن ما سأقوله مبتذل لكن تحملني، لا تقلق يا (عثمان) وضع ثقتك في الله أولًا ثم بقوة ودهاء رجال الأمن، كما تصفهم دائمًا في رواياتك. أتدري يا رجل؟ أنتَ طلبتها وقد أتتك، لطالما تحدثت عن الجرائم حتى تحقق حلمك... اعتبرها إحدى رواياتك التي تكتبها بحماس. إنها تجربة جديدة حضرة الكاتب (عثمان)!»

أطلقتُ ضحكةً قويةً من الكوميديا السوداء التي تفوه بها محققنا، وكم كنتُ أحتاجها عوضًا عن الطبطبة والطمأنة الزائفة... بينما ضحك هو ضحكته المكتومة.

«تتحدثُ وكأن التجربة سفرٌ لدولة سياحية أو الذهاب للقفز المظلي!»

قلتُ وأنا لا أزال أضحك، عاقدًا ذراعيّ وأنا أهز رأسي... ليطبق الصمت بعدها على السيارة التي شقَّتْ دربها. كانت لحظة الإدراك

تلك التي ذكرتني بالواقع المرير، بعد الضحكة القوية التي كنت أحتاجها... لم أرغب بقول شيء بعدها وما عساي أقول؟

بضع دقائق وتوقفت السيارة أمام العمارة، فتحتُ باب السيارة وقلت:

«تفضل معنا على فنجان قهوة، حلفتُ...»

قاطعني بتهكم:

«أي قهوة في هذا الظهر يا رجل؟ لا تحلف لا تحلف واصعد لتنال قسطًا من الراحة، لأول مرة أرى رجلًا يخرج من القسم ويدعو أحدًا لشرب القهوة في منزله!»

سألتُهُ وقد انقلب وجهي للجدية:

«هل ستتولى زمام القضية الآن؟»

ربّتَ على كتفي قائلًا:

«لا أستطيع تولي أي قضية أردت، هذه المدينة خارج نطاق عملي لكني أعرف الكثير من المحققين فيها... وهذا لا يمنع مساعدتي لهم عند الحاجة. لا تقلق فسأكون معك قدر المستطاع إن لم أكُن على رأس قضية»

اكتفيتُ بالتبسُّم لأغلق باب السيارة وأصعد إلى العمارة، وفي خاطري يجول أمرٌ واحد... النوم العميق الذي أنسى فيه الدنيا... أتمنى ألا أقابل أحدًا فلا طاقة لي. هرعتُ لشقتي من المصعد وفتحتُها سريعًا لأغلق الباب خلفي مباشرةً، اتكأتُ بظهري على الباب وبدأ جسمي بالهبوط على الأرض ليمسح الباب مسحًا... هذا كثيرٌ علي يا رب.

اليوم الموعود

رششتُ من زجاجة عطري الخاص بالمناسبات، ذاك العطر الذي تسميه (أريج) «عطر عثمان» لتلامس رائحته الزكية أنفي كما اعتدت في الزواجات ومعارض الكتاب... لكن أكانت تلك مناسبةً يتطيب لحضورها الناس؟ لا أعلم، ومنذ متى وأنا أتصرف كالناس الطبيعيين؟

أعدتُ النظر في الرسالة النصية على جوالي:

«(عثمان بن...) جلستك القضائية رقم (...) والمقرر عقدها في المحكمة الجزائية بـ (...) دائرة رقم (...) في التاسعة صباحًا في يوم (...)، يرجى الحضور مبكرًا»

لا أعلم إن كان الناس يتزينون للجلسات القضائية، على العموم هي جلسة رسمية... والمظهر مهم للانطباع الأولي. غادرتُ شقتي وأقفلتُ بابها، أسرعتُ في المشي قبل أن أصادف أحد الجيران... بتلك العمارة التي انتقلتُ إليها بعد أن باشرتُ العمل في ضيافة الطيران. اتجهتُ لسيارتي بعد مغادرة العمارة لأراها تغادر سيارتها سريعًا، بعباءتها الرمادية الواسعة ونظارتها الشمسية التي تناغمت على وجهها الطويل.

حثت الخُطا نحوي وسرعان ما احتويتها بين ذراعي، لأستنشق رائحة شعرها الزكية... كان الحضن أشبهَ باحتوائها هي لي بالأصح.

«اشتقتُ لكِ»

تسللت تلك الكلمة من شفتي دون أن أشعر مع تنهيدةٍ عميقة، كانت تلك الكلمة كفيلةً بالتعبير عن كل لحظةٍ عانيتها الأيام المنصرمة... كفيلةً بحجم المرات التي مرت بها في طيفي تحدثني بين حيطان الحجز المهترئة.

«لا تعلم حجم شوقي لك، للحظةٍ شعرتُ أنك أفلتّ من بين يدي»

قالت ويدها تلامس وجهي بعد ذلك العناق، لأقول ضاحكًا:

«لنتحرك الآن قبل أن أفلتَ حقيقةً هذه المرة وتسجّل عليّ جلسة غيابية، فلننتهِ من هذه التهمة الباطلة»

ضربت كتفي بعنف من مزحتي التشاؤمية، لأسحبها من يدها وأوصلها لباب الراكب... في أكثر مشهدٍ عاطفي تقليدي. فتحتُ لها الباب وركبت، يتناقل الكثيرون أن تلك العاطفة العميقة والمبادرة تنتهي بعد فترة... حتى أطلقوا عليها اسم «البدايات» لكن الأمر كان مختلفًا مع ذات الزمام تلك! أمعقولٌ أن علاقتنا لا تزال في البدايات

بعد مرور سنة وبعد خطبتي الرسمية لها من والديها، أم أن علاقتنا قوية سيتغنى بها المغنون والشعراء... لا أعلم ولا أعتقد أن أحدًا سيكترث بذلك.

أسرعتُ للركوب حتى لا نعلق في ازدحام الطرقات الرهيب بتلك المدينة الكبيرة... والذي تنفّس به عن غضبها على سكانها.

«هل اكتملت خطة الدفاع والمرافعة؟»

سألتني وعيناها تنظران للطريق، ملصقةً وجهها بزجاج النافذة.

«بإذن الله، استنزفتُ طاقة التفكير في الأسبوع الماضي وأحكمنا الضغط على الثغرات القانونية التي قد يستغلها الادعاء العام ضدنا»

أجبتُها وعيني على الطريق، بقيادتي البلهاء الجنونية والتي كانت قد تعودت عليها بحلول ذلك الوقت.

«لا تقلق (عثمان)، أملي بالله كبيرٌ أن هذا الكابوس على انتهاء»

قالت وهي تلامس يدي ثم تضغطها وتشد عليها، ولم تفشل لمساتُ يدها الناعمة أبدًا في طمأنتي وتذكيري أن كل شيء بخير... حتى في أقسى الظروف.

انشغلنا بالحديث عن الجلسة وما نحن على وشك فعله وقوله، وكانت خطة المرافعة تتمحور حول عدم وجود دافع حقيقي لقتل

(شوق) لـ (مناور)... وهذا ينطبق عليّ أيضًا. مع وجود احتمالية إصابة المضيف (رويد) والذي أنكر وجود الجثة بمرضٍ نفسي فقد وجدنا عدة زياراتٍ له للطبيب النفسي. كل ذلك بفضل الله ثم (مجد) في البحث والتنقيب، ماذا أيضًا؟ لا شيء آخر سوى ما ذكرت، وليساعدنا الله فيما نحن أمامه.

«صحيح (عثمان) ما الذي حصل في موضوع أن سفركم قد يكون مدبرًا بفعل فاعل؟»

أجبتُها مثبّتًا يديّ على المقود:جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقش

«كان وجودنا على متن تلك الطائرة فعلًا مصادفة، لم نضع يدنا على ما يثبت نقيض ذلك»

تراءى لي مبنى المحكمة بعيدًا في الجهة اليمنى، وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصلنا له... ووجدتُ موقفًا بعيدًا قليلًا ولم أكُن لأجتهد في البحث عن موقف قريب فسنتأخر.

التزمتُ الصمتَ بعد أن توقفنا ومشينا للمحكمة، قبل أن تخرج عن صمتها قائلةً:

«(عثمان)، لِمَ أنت مصر على براءة (شوق) المطلقة؟ ألا يمكن – واسمعني بعقلك لا بقلبك – ألا تكون بريئةً بعد كل شيء؟»

هي لا تعرف (شوق) كما أعرفها أنا، وكنتُ واثقًا أن ذلك حديث غيرتها لا حديث عقلها.. أجبتُها ونحن ندخل المحكمة:

«إذا ابتدأنا بالشك في (شوق) أليس من الطبيعي أن نشك فيّ أنا أيضًا؟ أنا أعرف (شوق) منذ زمنٍ بعيد ومن المستحيل أن ترتكب جريمةً بتلك الوحشية»

انتهينا من إجراءات التفتيش قبل الدخول ووجهونا للدائرة المنشودة، دخلنا وبدأت عيني تقع على العدد المهيب من الأشخاص الذين أعرفهم... تحركنا وجلسنا بجوار المحقق الحاذق المدعو (أديم) في كتبي.

(ماري) و(رويد) و(روان) و(فراس) طاقم المقصورة المشؤوم يجلسون على مقربةٍ منّا، مع رجلين آخرين ليسا سوى الطيّار (نيكولاس) ومساعده (عصام).

أخو الضحية وعائلته الوحيدة (عاطف)، يجلسُ وحيدًا بنظراتٍ كانت تبحثُ عن شيء واحدٍ فقط... الأخذ بثأر أخيه الأصغر.

المحامية التي علّقت عليها الآمال بعد خالقنا، كانت تجلس في المقدمة وبجوارها مقعد فارغٌ علمتُ أنه لـ (شوق) التي لم تحضر بعد... وكرسي القاضي لا يزال فارغًا. المدعي العام في الجهة المقابلة

مع شخصٍ آخر، يحدثان بعضهما البعض ويتسارّان فيما بينهما... بثيابهما الرسمية وكامل تأنقهما.

دخلتْ (شوق) وإحدى السجّانات تقودها مكبلة اليدين، وقد أخفت شعرها خلف حجابٍ لم تتقن لبسه وقد تطاير الكثير من شعرها خارجه... احترامًا للمحكمة وسلطة القضاء. تراكمت الهالات السوداء تحت عينيها الناعستين، اللتين ما أن وقعتا عليّ حتى رمقتهما بحنق غريب. جلست على كرسيها بجوار المحامية وبدأتا بالتهامس حيال ما ستفعلانه على الأرجح.

لحظاتٌ ودخل القاضي فصمت الجميع احترامًا له، بشماغه الأحمر القاطع كالسيف بحدته... ورائحة العود تملأ الدائرة. أشار لهم بالجلوس ووضع ملف القضية الذي بيده على الطاولة، ليجلس ويحرك نظره حول القاعة سائلًا:

«المدعي (...)؟»

رفع المدعي العام يده واقفًا وهو يسجل حضوره.

«المتهمة (شوق بنت...)؟»

وكزت (مجد) (شوق) لتقف الأخيرة وهي تقول بامتعاض:

«موجودة»

التفتت للخلف بعد أن سجلت حضورها، لتقع عينها عليّ وأتبسّم بتوتر... فما كان منها إلا أن رمقتني بنظرةٍ قاتلة وهي تعاود نظرها للقاضي وتجلس. وهل هي في موقف يسمح لها بالتبسّم أصلًا؟

«(شوق)، هل تقبلين توكيل المحامية (مجد) للترافع عنك في هذه القضية؟»

سألها القاضي ذو اللحية الكثيفة المهيبة، بملامح خالية من المشاعر.

صمتت (شوق) لبرهة قبل أن تجيب:

«لا، سأقوم بالترافع عن نفسي»

اللعنة! ما الذي تقوم به تلك البلهاء؟! حتى أن وجه القاضي قد تغيّر، فأعاد عليها السؤال:

«هل أنتِ متيقنة؟ ستجيبين أنتِ عن جميع الأسئلة وكل ما تقولينه سيكون مسجّلًا وسيستخدم في الحكم ضدك»

أجابت بصرامة متجاهلةً همسات المحامية وعينيها القلقتين:

«نعم حضرة القاضي، سأترافع عن نفسي»

نظرتُ حولي لأرى نظرات الحاضرين التي ملأها التعجب، ملايين الأسئلة تدور في عقلي... ما الذي تخطط له (شوق) يا ترى!

أشار القاضي للمحامية بالرجوع والجلوس معنا بالخلف، لم يحتج أن ينطق فقد فهمت هي مقصوده... واتجهت للوراء وما أن رأتني حتى مشت وجلست بجواري ملقيةً السلام بالنظر لـ(أريج).

وقف المدعي العام وسرد التهم الواقعة على (شوق) وبعضها عليّ أنا، بالأدلة الموجودة لديهم... ليبتدئ الكابوس الحقيقي بين أروقة المحاكم. حان دور (شوق) للرد على تلك الاتهامات، وقفتْ وحركت نظرها حول الدائرة... لتقول:

«نعم، لقد قتلتُ (مناور) في تلك الرحلة ولم أندم للحظةٍ على قتل ذلك الأرعن... وقد عاونني (عثمان) في التخطيط لقتله وخبأ سلاح الجريمة في حقيبته»

عبارتها تلك جمدت الدماء في أوردتي، ما الذي تفوهت به تلك المجنونة؟! حركتُ جسدي للأمام ودقاتُ قلبي تتسارع، ابتلعتُ ريقي وأنا أرمقُ اللعينة بعينين اشتعلتا حقدًا... حولتْ نظرها للوراء لتبادلني النظرة ذاتها. بدأت قدمي اليسرى بالاهتزاز وقد وصلتُ إلى أقصى مراحل التوتر، حركتُ جسدي للأمام والخلف بقلق... لأشعر بيدها الحانية توضع على ركبتي وتشد عليها.

حولتُ بصري لذاتِ الزمام التي اقتربت من أذني وهمست:

«لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام... خذ نفسًا عميقًا أرجوك»

وضعتُ يدي على يدها وشددتُ عليها، محاولًا إدخال الهواء وإخراجه وكأن تلك مهمة صعبة لا يستطيع أي إنسان طبيعي فعلها... عيناها الواسعتان كان لهما سحر طمأنني كالعادة... لكن الموقف هذه المرة أقوى بكثيرٍ من عينيها المليئتين بالحنان.

ما قالته قد يعرضنا نحن الاثنين لسيف القصاص، آهٍ كم كانت اللحظات عصيبة... وقد فقد عقلي طريقته السليمة في التصرف. أمعقول؟! أمعقولٌ أن تكون (شوق) هي القاتلة في نهاية المطاف! هل كانت (أريج) محقة فيما قالته عن (شوق) بعد كل شيء؟!

تعالت الهمهمات والحوارات الجانبية في دائرة المحكمة قبل أن يصرخ القاضي ليسكتهم، ويسأل (شوق):

«لِمَ قمتِ بقتل (مناور)؟»

أجابت بكل برود:

«لقد كان مزعجًا جدًّا بمحاولاته السخيفة لإبهاري والالتصاق بي وحبه الرخيص، فقررت قتله»

هي تتحدث وقلبي ينغزني مع كل إصبعٍ يقع على لوحة المفاتيح

من كاتب الضبط(*)، ليسجل كل كلمة تخرج من فمها باحترافية ودقة حتى تستخدم ضدها.

سألها القاضي:

«ما مصلحة (عثمان) لمساعدتك في الجريمة؟»

أرجوكِ يكفي، إلى هذا الحد وكفاية... لقد عانى قلبي وعقلي مع هذه القضية كثيرًا... أرجوكِ لا تنطقي بأي شيء غبي.

«لطالما كره (مناور) (عثمان) وكانت مشاعر متبادلة بينهما، فلم يتردد في مساعدتي»

ما هذا الجواب الغبي، وكأنه يصدر من طفلٍ في السابعة من عمره لا يعرف ما هو القتل أصلًا... وهل يقتل الإنسان لمجرد الكراهية فقط؟!

أعتقد أن تلك الغبية قد دمرت كل أملٍ في مساعدتها، ولم يعُد لها بصيص نور في نهاية النفق المظلم... وقد جرتني معها للقاع بشكلٍ أو

* كاتب الضبط: هو من يقوم بجمع المعلومات والبيانات عن وقائع الدعوى والمرافعات الحقوقية والجنائية وتدوينها، وتوثيق القرارات المتخذة من القاضي وتنظيم الصكوك لأصحاب العلاقة، وضمان تطبيق الأنظمة والسياسات والإجراءات المنظمة، وحفظ المعلومات والبيانات المتعلقة بالقضايا وتبويبها وترتيبها ومتابعة تحديثها.

بآخر! أكلما اقتربنا من النهاية عدنا لنقطة البداية؟ لحظة، تلك ليست عودةً للبداية... بل اقترابٌ لعينٌ من نهايتنا إن لم تصمت تلك البلهاء أو نفعل شيئًا حيال ما قالت.

***

انتهت الجلسة الأولى على أغرب نحو، وقد نجح الوقتُ في التلاعب بأعصابي... بتحركه البطيء البارد وكأنه يتلذذ بالنظر إلينا في أوج معاناتنا. أدلى من كان على متن الطائرة بشهاداتهم، ابتداءً بطاقم المقصورة الرباعي... ومن ثم مقصورة القيادة بالطيار ومساعده... والذين أصروا أيما إصرار على حديثهم وأن أحدًا منهم لم يرَ الجثة. ثم حان دور المحامية (مجد) لتدلي بشاهدتها كراكبة على متن تلك الطائرة، ولم تكن شهادتها ذات فائدة أبدًا فلم تكن حول الجثة. ليحين دوري وأحكي كل ما رأيته وأعرفه بالتفصيل الممل، لأناقض (شوق) التي أقحمتني معها في جريمتها... لعل شهادتي تلك تنقذني من الشر الذي ينتظرني.

اقتادت السجانة (شوق) بأصفادها وعينيها اللتين ترميان بشرر لتعيدها للحبس. سارع الجميع بمغادرة الدائرة وحاولتُ اللحاق بالسجينة لأتحدث عما فعلته قبل قليل، فأمسكَ (أديم) ذراعي ومنعني

من ملاحقتها، همس لي بحزم:

«أنت بريء، فلا تُشعر الناس أنك مذنب بأي شكل من الأشكال...

وما الذي سيفيدك من الحديث مع (شوق) الآن على أية حال؟»

وقفت (أريج) بجواره وأومأت لي، بعينيها الواسعتين اللتين حاولت إخفاء خوفها إلا أنه كان واضحًا لي.

خرجَ بعد ذلك مجموعة الأوغاد من الدائرة، طاقم الطائرة اللعين! هم بداية النهاية، بجحودهم الظلوم. رمقني (رويد) بنظراته الاستفزازية، قطبتُ حاجبيّ وشددتُ قبضتي... لتسحبني (أريج) وهي تقول:

«أرجوووك يا حبيبي، أنت في غنًى عن بدء المشكلات هنا... تعال معي»

وكما كان لعينيها الواسعتين سحرهما الخاص، امتلكت ذراعين قويتين حين تريد فقط... ذراعين سحبتني بهما للخارج دون مقاومةٍ مني. وتانك الذراعان تتحولان لأخريين ناعمتين حين يسمح لهما الوقت، وتلامس يداها الصغيرتان يديّ الكبيرتين وأشد عليهما... لأشعر باتصال الروحين واتحادهما لنصبح في جسد واحد وأسحبها لاحتضانها.

عمّ أتحدث أنا؟ الذراعان هما هما والجسد هو هو، لكنها المشاعر حين تتلاعب بهما فتجعلهما قويتين تارة... وناعمتين تاراتٍ أخر.

سحبتني ذات الزمام للخارج، وكلي رغبةٌ في تسديد لكمةٍ لوجه ذلك المضيف الأبله... ما الذي فعلته لكم لتجحدوني ذلك الجحود؟ والأهم من ذلك، ما الذي فعلته في حياتي كلها لتورطني (شوق) تلك التوريطة بجريمة قتل!

الحقيقة؟

رنات الجرس المتكررة عكرت صفو نومي، عفوًا... عن أي نومٍ صافٍ أتحدث وكل نومي كوابيس بعد كل ما حصل؟ تحركتُ بتثاقل نحو باب الشقة وأنا أنظر للساعة في جوالي، والتي أعلنت اقتحام السادسة مساءً لتوقيتنا. سحبتُ نفسًا عميقًا ونظرتُ عبر العين السحرية و.. يا إلهي! لا لا، معقولٌ ما أراه؟! أبرك الساعات التي تزورني فيها، أتى بك الله لبابي!

قطبتُ حاجبيّ وشددتُ قبضتيّ وفتحتُ الباب، بشعري المتطاير وعينيّ النصف مفتوحتين اللتين لم تنويا خيرًا.

«ما الذي تفعله هنا أيها اللعين؟!»

عادَ للوراء بضع خطواتٍ خوفًا من أن تصيبه قبضتي بلكمة أو تسدد له صفعة قوية، والأحسنُ من ذلك كله أن تنهال عليه بالضرب... وتكسر ثناياه المتقدمة كالسناجب.

«أرجوك يا (عثمان)، هلا جلسنا وأفهمتك الموضوع برمته؟»

قال بكل هدوء ليزيد من حنقي، رافعًا يديه علامةً على الاستسلام.

«تفهمني الموضوع؟ أتقصد حين جحدت أنت وتلك الساقطة

(ماري) وكل المضيفين وجود الجثة التي رأيتموها جميعكم؟ أين هي بالمناسبة؟ يا ليتك أحضرتها معك لتكتمل حفلة السعد!»

اكتفى بإغماض عينيه فقط واستلام الصرخات، لم ينطق للحظاتٍ وتبادلنا الصمت... ولا أعلم كيف سيطرتُ على نفسي كي لا أبرحه ضربًا! قال وهو يفتح عينيه أخيرًا:

«هلّا تحدثنا وأفهمتُك كل شيء رجاءً؟»

أجبتُهُ هازًّا رأسي:

«لا، اغرب عن وجهي أنت ومن أرسلك»

«(مناور) ليس بريئًا كما يظن الجميع، وقد افتعل الهوائل معنا نحن طاقم الطائرة قبل أن يُقتَل»

كدتُ أغلق الباب في وجهه لكن عبارته تلك استوقفتني، تصلبت يدي لوهلة قبل أن أعاود فتح الباب على مصراعيه... ناظرًا له باستغراب ليكمل حديثه.

«نعم بالضبط، كما أقول لك! وكما ظهر لك اليوم فـ(شوق) ليست بريئةً هي الأخرى، أرجوك هلّا تحدثنا بعض الوقت لتفهم كل شيء؟»

أغمضتُ عينيّ وسحبتُ نفسًا عميقًا، لأخرجه وهو مثقلٌ بالهموم التي رآها داخل جسدي... قائلًا:

«حسنًا، ولكن هذه فرصتكم الوحيدة للتحدث معي... وسأنهيها بمجرد أن أشتم رائحة كذب وخداع. قابلني عند مقهى (...)»

لم أكن لأدخله شقتي فلا أعلم أي مصيبة يجرها معه، وقد اكتفيتُ من ثقتي التي أوردتني المهالك. أغلقتُ الباب وغيرتُ منامتي لأقرب لباسٍ أجده أمامي، وغادرتُ سريعًا للمقهى الذي كان قريبًا جدًّا من شقتي. دقائق وتوقفتُ بسيارتي أمامه، لأرى (رويد) جالسًا مع قهوته السوداء التي شابهت سواد قلبه. أخرجتُ هاتفي وضغطت زر بدء التسجيل، فلن أضيع فرصة حيازة اعترافاته.

توجهتُ نحوه دون تضييع ثانية.

«ماذا تحب أن تشرب؟»

كاد يقومُ ليطلب لي، أشرتُ له بيدي بصرامة مجيبًا:

«اجلس أرجوك وابدأ بالحديث قبل أن أضربك، ستلعب دور الكريم الآن بعد أن ورطتني»

تلقّى تلك الإهانة ساكتًا، واستحقها بجدارة ولا حق له بالدفاع أصلًا... قال بحزم:

«عليّ أن أتثبّت من شيءٍ أولًا، هلّا سمحت لي وأريتني هاتفك؟»

هززتُ رأسي بالنفي فاعتدل في جلسته وقرر:

«لن أخبرك شيئًا إذًا، نحن لسنا أغبياء كما تظن»

صمتُّ للحظاتٍ ولم أتحمل، أخرجت هاتفي وفتحتهُ لأقفل التسجيل ثم أريته الشاشة وقلبتُها كيف ما شاء ليتحقق من أني لا أسجل حديثه. قام بعدها نحوي وقال:

«عليّ التحقق من أنك لا تضع جهاز تنصت»

أومأتُ له وبدأ بتحسس صدري إلى خصري، ثم عاد لمقعده بعد أن اطمأن... ليبدأ حديثه دون مقدمات:

«نحن لم نجحد رؤيتنا للجثة بإرادتنا، فقد تم تهديدنا من القاتل بذاته قبل أن ننزل لمبنى الاستجواب بالمطار... وقد أمرنا لنقول ما قلناه بالحرف الواحد وإلا...»

صمتَ قليلًا والتفت حوله، وقدمي تهتز بعنف وعيناي ترتجيانه أن يكمل حديثه... فقد توقف عند أهم نقطة.

«وإلا قام بنشر الفضائح التي يحملها ضدنا»

ما الذي يتفوه به هذا الأبله؟

«نعم؟ إذًا أنتم تعلمون هوية القاتل! عليك أن تسرع بإخباري القصة فصبري قد نفد، أخرج ما بجعبتك!»

«ملّا هدأت يا رجل؟! الانفعال والغضب لن يقدما لك الأجوبة والحلول التي تريدا»

صمتَ وهو يسحبُ نفسًا عميقًا قبل أن يسرد:

«لا، قام بتهديدنا برسالة مجهولة في الطائرة... وأخبرنا بما نقوم به بالضبط وهو جحود رؤيتنا للجثة وعلى الأرجح هو من زرع السكين بشنطتك. وبعد موقف المحكمة اليوم أعتقد أن الكثير من الأمور اتضحت لك»

هززتُ رأسي معترضًا:

«لا أعتقد أنها (شوق)، وإن كان اعترافها اليوم دليلًا... إلا أن لغة جسدها واعترافها ودافع جريمتها الطفولي غير منطقية! لا أحد يقتل بدافع الكراهية فقط»

أجابَ بعد أن ارتشف من كوب قهوته:

«لم أقل إنها القاتلة لكنها أخفت الكثير عنك، سأحكي لك كل ما حدث معنا وذلك منذ أربعة أشهر... حين ابتدأ (مناور) اللعب بالنار مع الجميع»

قبل أربعة أشهر...

انصياع

أصوات الركاب والموظفين تتعالى في ذلك الوقت المزدحم بالمطار، وأي وقتٍ لا يكون مزدحمًا في المطار؟ فهو المكان الذي لا يرتاح دقيقةً واحدةً، من الطائرات الهابطة وتلك المقلعة... والركاب القادمين وأولئك المغادرين بمختلف وجهاتهم ومقاصدهم وأشكالهم وألوانهم وأعمارهم. المطار هو المكان الذي لا يهدأ، وإن هدأ فاعلم أن مصيبةً قد حدثت أو على وشك الحدوث.

حث الخُطا وهو يسحبُ شنطته خلفه بزي عمله الرتيب المهندم الذي لم يُخفِ بدانته أبدًا، دخل الغرفة الخاصة لتسجيل الحضور والاستعداد للصعود للطائرة... ليلتقي بفتاةٍ آسيوية لم يحوِ مظهرها أي خطأ. شعرها المربوط على هيئة كعكة، ومساحيق تجميلها المطلوبة، ونظافة لباسها... كل تلك أثبتت احترافيتها العالية. وما أن وقعت عيناه عليها حتى تبسّم، لتناقضه الشعور عابسةً في وجهه أيما عبوس... لكن ذلك لم يكُن ليمنع الأخير من المحافظة على ابتسامته والالتقاء ببقية الزملاء.

قالت سيدةٌ بدت أكبرَ من البقية سنًّا، ومشى الجميعُ خلفها على

عجل:

«أهلًا (مناور)، مبكّرٌ في القدوم كعادتك!»

كانت تتهكم بالطبع على آخر المضيفين وصولًا، وسرعان ما غادر الطاقم الرباعي للطائرة حتى يباشروا عملهم... وفي الطريق انضم لهم الطيار ومساعده وحيوا طاقم المقصورة على عجل. كانت نظرات الازدراء لـ (مناور) تعتلي الجميع، لم يتقبل وجوده أحدٌ في عمله كما هو واضحٌ من تلك الرحلة... وقد كان هذا حاله دائمًا. لكن بروده وعدم اهتمامه كانا يقتلان الكل، وما كان منه كردة فعل على لؤم الطاقم وتسارّهم وسخريتهم منه سوى مكوثه على هاتفه... بابتسامةٍ تشق وجهه الأبيض. وصلوا للطائرة وقالت لهم المضيفة المشرفة:

«(ماري) ستكونين بالخلف مع (باتريشا)، و(مناور) سيكون بالمقدمة معي»

لم يعترض أحدهم على التقسيم، على الرغم من أنه جائر فقد أعطوا (مناور) الدور الأصعب والأكثر تعبًا في المهام... لكن ذلك لم يكن لينغص يومه ومصدر سعادته المجهول. ضحكتْ (ماري) ذاتُ الملامح الآسيوية و(باتريشا) التي صرخت ملامحها الأوروبية ببياض بشرتها الشاحب وشعرها الأشقر، سخريةً من المضيف الأخير الذي لم

يعرهم اهتمامًا ونزل للطائرة سريعًا... ليبدأ عمله ومهامه الموكلة قبل وصول الركاب.

«سيدة (روان)، كل شيء على أتم الاستعداد»

قالها (مناور) مبتسمًا في وجه المضيفة المشرفة، والتي أعادت الابتسامة بوجه مكفهر فلم تقل لؤمًا عن البقية... لتقول له:

«ابتسامتك المريبة تشعر الركاب بالرعب، أرجوك لا تبتسم»

أومأ وهو يخرج هاتفه، لتنهره قائلةً:

«ألا تعرف أن استخدام الهاتف ممنوعٌ منذ أن تضع قدمًا داخل الطائرة!»

أجابها وعينه لا تزال معلقة على هاتفه:

«أعلمُ أعلم، أريد أن أريك شيئًا فقط»

لحظاتٌ وأراها هاتفه وهو يبتسم، لتقطّب حاجبيها وتحول نظراتها المغرورة لأخرى خائفة اختلطت بالغضب... وتقول له وقلبها يكاد يخرج من فمها جراء توترها:

«أيها اللعين، أتهددني؟!»

أغمضَ عينيه وابتسامته لا تزال تعلو محياه، ليقول بكل هدوء:

«ششششش، أنصحك بالهدوء فلا أظنك ترغبين أن ينتشر الخبر في الأوساط. أتساءل عن رأي الشركة حين يعلمون عن العلاقة بينك وبين الطيار (نيكولاس)، مثبتةً بالأدلة. أو عن رأي زوجك سيدة (روان)، ألستِ سيدة متزوجة؟»

اشتعلت عيناها غضبًا، لكن الخوف كان أكبر من غضبها... وتلك كانت بداية مراحل الانصياع وتسليم رقبتها للمبتز.

«لا تقلقي، طلباتي لن تكون صعبةً أبدًا وسأعاملك باللطف ذاته الذي عاملتني به»

أطلقَ ضحكةً لم يستطع السيطرة عليها، مربتًا على كتف (روان) وهو يتخطاها متجهًا لموقعه... فصعود الركاب قد آن أوانه. لتعود الأخيرة إلى موقعها ورأسها يدور ويتخبط، وهي ترتجي قلبها أن يتوقف عن النبض العنيف... وكأن قلبها كان يوبخها على كل ما اقترفت.

تهديد

«ما هكذا توضع الأغراض! ألم يثمر تدريبك أبدًا؟ أراهن أن المدرب عانى منك ومن غبائك وبرودك!»

قال (رويد) وهو يعيد ترتيب المأكولات على عربة تقديم الطعام للركاب، وكله حنق تجاه زميله الذي اكتفى بالتبسم فقط... والنظر له ببرود. بدأ الاثنان بدفع العربة في تلك الرحلة الليلية، والتي غفا على متنها معظم الركاب... وقد خلت من المهام الشاقة والركاب المزعجين. مروا خلال المقصورة ذهابًا وإيابًا، ملبّين طلبات القلائل الذين كانوا على يقظة... وما أن بدأ (رويد) بإعادة ترتيب العربة وإقفالها بإحكام حتى أخرج له (مناور) سلاحه الذي أصبح يستخدمه مؤخرًا... هاتفه.

أراه ما أراد، لتنزل الصاعقة على (رويد) الذي ارتعدت عيناهُ ملبيتين رغبات قلبه... الذي هيأ له مختلف السيناريوهات التي قد تحدث بمجرد خروج الخبر للعلن!

«لا لا لا، أهذا (رويد) يختلس الأموال ويتلاعب بالفواتير والأوراق؟ أين الأمانة في العمل أيها اللص؟!»

ضحكَ ضحكته المعتادة وربّت على كتف (رويد) الذي فاقه طولًا، وما زال في حالة ذهول منعته من الدفاع عن نفسه... أو حتى الرد على الإهانة والاتهام الموجه له. وكيف عساهُ يدافع والدليل القاطع بحوزة من اتهمه، جلسَ في مقعده وزفرَ بعمق وهو يخفي وجهه بين كفيه والعرق يتصبب من جبينه.

إقلاعٌ ثم هبوط

ركب آخر فردٍ الحافلة التي ستُعيدهم للمطار، والجميعُ منهكُون من شقاء الرحلات المتتابعة... إقلاعٌ ثم هبوط... إقلاعٌ ثم هبوط... ومن ثم إقلاعٌ وهبوطٌ... وأخيرًا الرحلة الرابعة. يظن البعض أن السفر ممتعٌ للغاية، وركوب الطائرة تجربة مميزةٌ دائمًا... لكن الأمر مختلفٌ مع أصحاب المهنة الذين يقضون جل يومهم بين السماء والأرض.

إحدى المضيفات أسندت رأسها على نافذة الحافلة، وأغمضت عينيها ورأسها يتمايل مع تضاريس الإسفلت المتعرجة... وعقلها بين اليقظة والنوم. الأخرى أمسكت رأسها بكلتا يديها وقد هاجمها الصداع، ولم يعد عقلها بعمل بشكلٍ سليم... كل الذي تريده العودة للمنزل.

مضيفٌ آخر مكثَ على جواله وحاله كان أحسن من البقية، وكأنه بدأ يومه للتو... بمزاجٍ عالٍ يلامس السحاب. اعتلته ابتسامته المعتادة، والتي أصبحت بمثابة الجحيم الملتهب... من يراها عليه أن يتنبه جيدًا ويحترس من شر مستطير قادم. قام من مقعده في تلك الحافلة، وبذلك

الوقت المتأخر الذي أعلن مرور ساعتين بعد يومٍ جديد... ليجلس بجوار تلك المضيفة ذات الملامح الآسيوية الغافية.

«(ماري)، هلّا تفحصتِ معي هذه المستندات؟»

حدثها بصوتٍ منخفض شابه الهمس، بإنجليزيته السيئة اللكنة.

فتحت عينيها الصغيرتين المرعوبتين، من الكائن الذي ظهر من العدم بجوارها فجأة... لتستوعب ذلك الكائن وترمقه بنظرةٍ عبوس قاتلة. امتعضت بإنجليزية شابتها اللهجة الآسيوية:

«(مناور)، أقسم لك إن لم تكف عن مضايقتي...»

قاطعها وهو يربت على كتفيها بلطف، ويهمس بأذنها:

«لم أعلم أن المضيف يستطيع أن يترقّى لمنصب (مراقب جودة)، قبل المرور بمنصب (مضيف مشرف)»

تغيرت نظرتُها في ثانية، بدأت بالتقليب بعينيها في تلك المستندات بهاتف (مناور)... ليقول هامسًا بابتسامته اللعينة:

«إلا لو كان المضيف قد تلاعب بسجلات الموارد البشرية والتواريخ، وأعرف أن هذا بالضبط هو ما فعلتِه!»

طاولةٌ غسلها العار

كانت قدمه تهتز بعنف وهو يتلفت حوله، بذلك المقهى الفارغ من الزبائن في ذاك الوقت المتأخر من الليل... نظر لساعته بين الفينة والأخرى وحركاته المريبة تنم عن متعاطٍ يتوق لجرعته التالية.

«(رويد) هدئ من روعك وتوترك، من يراك يخالك مخطوفًا!»

وبخه الرجل الجالس أمامه متحدّثًا بإنجليزية أمريكية، ضاربًا الطاولة أمامه بلطف. كان يحمل السمات الغربية بشعره الأشقر وعينيه الخضراوين.

أجابه (رويد) وهو ينظر للخلف نحو الباب:

«أريد أن أفهم، ما الذي يؤخرهم بحق الله؟!»

«هكذا المضيفون دومًا، يتأخرون بالحضور على الرغم من أن حضورهم قبلنا أهم»

نطق الرجل الآخر الذي جلس معهما، متهكّمًا ليضحك الرجلان مع بعضهما البعض... مما ضايق (رويد) كثيرًا وجعله يقول:

«هكذا الطيارون كالعادة بغرورهم، وسبحان الله الذي جعل مضيفًا عاديًا كـ(مناور) يوقع بهم ويبتزهم»

توقف الرجلان عن الضحك تمامًا، وتحرك الأمريكي بجسده للأمام وعيناه تتطايران شررًا قائلًا:

«أتهزأ بنا أيها اللص المختلس؟ على الأقل اللعين (مناور) لم يبتزنا في أمرٍ يعيبنا في أخلاقنا! أما أنت فمجرد لص وظيفته سكب القهوة والشاي لنا»

هزّ (رويد) رأسه وهو يقول:

«الطيّار (نيكولاس) يعطينا درسًا عن الأخلاق، هل تريدنا أن نتحدث عن مقطع الفيديو مع (روان) يا صاحب الأخلاق؟»

تزامنت جملته تلك مع دخول فتاتين للمقهى، وحين لمحهما عاد لصمته ليقول (نيكولاس) ضاحكًا:

«أكمل أكمل ما قلته عن (روان) أيها الجبان»

«لا أريد أن أسمع شيئًا، من المفترض أن نعمل كفريق وها أنتما تتشاجران كلما سنحت لكما الفرصة»

قالتها (روان) وهي تجلس إلى الطاولة، بشعرها البني القصير الذي تحرك مع كل هزة.

جلست الفتاة الأخرى الآسيوية بجوارها، وهي تربط شعرها سريعًا متحدثةً باللغة المشتركة على تلك الطاولة... الإنجليزية:

«أين (فراس) بحق الجحيم؟! ألم نتأخر نحن بما فيه الكفاية»

أجابتها (روان) وهي تقصد الجميع بإجابتها:

«إن أردنا نجاح الخطة فعلينا أن نتحلّى بالصبر الشديد، وندع الخلافات جانبًا حتى ننتهي من كابوس المبتز الأحمق (مناور)»

لحظاتٌ مليئةٌ بالتوتر، ونافدة من الصبر الذي كانت تتحدث عنه المضيفة (روان)... نظرت فيها المجموعة البائسة لبعضهم البعض وقد غسل العار وجوههم من الفضائح المتراكمة ضدهم... والتي لو خرجت للعلن لدمرت حيواتهم.

«ها هو ذا، أتعلمُ لو أنك تأخرت دقيقةً واحدةً...»

أمسكت (روان) بيده وقالت:

«ماذا قلت لتوي عن الصبر؟»

كان الجميعُ ينظرون للقادم الأخير، والذي دخل على عجلٍ وقد أثبت شعره الفوضوي ووجهه المغسول حديثًا أنه قد استيقظ لتوه... جلس إلى الطاولة وهو يقول محولًا نظره بين وجوه الجالسين:

«أعتذر منكم بشدة، لا أعلم ما الذي حصل لي و...»

قاطعه الرجل الجالس بجوار (نيكولاس):

«لا وقت لدينا لاعتذارك، المهم الآن (ماري)... هل تحققتِ من اكتمال العدد في الرحلة؟»

قالت (روان) لتفرضَ نفسها قائدةً للمجموعة التي غسلها العار:

«على رسلك يا (عصام)، قبل أن نتحدث عما سنفعله... هل الجميعُ مؤيد لما نحن على وشك القيام به؟ من أراد التراجع فلديه فرصة الآن»

صمتت للحظاتٍ وهي تحرك نظرها بأنحاء تلك الطاولة، وتتمحص الوجوه المغسولة بالعار... لتتحقق من استعدادها التام وإقدامها على الانتقام واستعادة ما تبقى من كرامتها... التي مسح بها (مناور) الإسفلت.

«حسنًا، لقد تكفلنا بالرحلة وطاقمها بالكامل... سيكون الطيار (نيكولاس) ومساعده (عصام) في الكابينة. وأنا المضيفة المشرفة ومعي (مناور) و(ماري) و(رويد)، ولنأمل ألا يغير (مناور) الرحلة من جهته، ولا أخاله يغيرها لأنه يتلذذ بالطيران معنا وابتزازنا كل رحلة. وقبل صعودنا للطائرة بقليل ستغير (ماري) وتبدّل بين (فارس) و(مناور)، دون أن يعلم (مناور) بذلك التغيير... وسيصعد معنا في تلك الطائرة كمضيفٍ ليتفاجأ بوجود (فارس). حينها سنرغمه على تبديل ملابسه كي يظهر للجميع أنه مجرد راكب، ونعرض عليه طلباتنا كلها وينتهي مع هذه الرحلة كابوس الابتزاز الذي طال»

صمت الجميعُ قبل أن يقفز مساعد الطيار النحيل (عصام) بسؤال:

«ماذا لو راجعوا سجلات الركاب ولم يجدوه بها؟»

هزت (ماري) رأسها بالنفي وهي تقول:

«لا تقلق، سنضيفه في سجلات الركاب بالنظام... أي جزء من الخطة مختص بالنظام وقاعدة البيانات فاعتمدوا عليّ فيه»

تهكم (رويد):

«بالتأكيد، فوحدك من استطاع الترقّي من (مضيف) إلى (مراقب جودة)... أستطيع الوثوق بك»

استشاطت (ماري) ذات العينين المسحوبتين غضبًا، وكادت تسلقه بلسانها الحاد... الذي تخبؤه وطالما كانت حليمةً مع الجميع. ضغطت (روان) على يدها وأرغمتها على الجلوس، ليخرج (فراس) البارد عن صمته ويقول:

«هلّا توقفت عن إثارة غضب الجميع هنا أيها الطفل؟ الكل قد تضرروا من هذا المبتز حتى أنت! ولا أعتقد أن أحدًا أسوأ حالًا مني! اللعين يحمل ضدي صورًا من كل رحلة...»

قاطعتهُ (روان):

«كلنا نعلم ولا نريد أن نسمع مجدّدًا أرجوك، ولا أود سماع أي شيءٍ ضدنا بعد الآن»

قال مساعد الطيّار (عصام):

«موعدنا الرحلة إذًا، طائرة ١٥ :٣ فجرًا»

عمّ الصمتُ تلك الطاولة المشؤومة، وقد غيّمت فوقها هالةٌ من الحقد والرغبة في الانتقام... طاولةٌ غسلها العار.

طائرة ٣:١٥ فجرًا

3:15 AM

أصوات الكعوب العالية تطرق البلاط بعنف، لم تكن الكعوب فقط بل حتى القلوب دقت الأقفاص الصدرية بأقصى قوة... سوى قلبٍ واحد جهل تمامًا ما على وشك الحدوث له. الجهلُ بالمصيبة التي قد تقع، أحسنُ بألف مرة من العلم بها... كحال صاحب الابتسامة التي أربكت كل من رآها... (مناور). كان يمشي بخُطًا ثابتة وقد اعتاد نظرات الحقد ممن ابتزهم، وهو يحسَبُ أن وجوده معهم في تلك الرحلة محض مصادفة... غير عالمٍ أن نهايته ستكون على متن تلك الطائرة... طائرة ٣:١٥ فجرًا.

خرج الطاقم من المطار للحافلة كالموظف الذي اعتاد عمله، وبات يعيش حياةً روتينية قاتلة... لا جديد فيها. كل ما حولهم أثار توترهم، ظلام الليل الدامس، الاهتزازات اللامنتهية للحافلة، الوقوف المتكرر... حتى أصوات الأنفاس كانت تجلب التوتر سوى للمبتز المبتسم.

وصلت الحافلة للطائرة وصعدوا على عجل، كلٌّ يحمل حقيبته بعد يومٍ طويل مرهق... بأربع رحلات متواصلة ستنتهي برحلتهم تلك.

بدأ (مناور) بعمله ليتوقف فجأةً حين شعر بمن يحيط به، استدار ليرى (فراس) يتقدم من المقصورة الخلفية بلباس عمله... كيف؟ تساءل عقله الجاهل.

(روان) أمامه مباشرةً بشعرها القصير الذي اهتز حتى مع دقات قلبها العنيفة، على الميمنة الطيّار (نيكولاس) بعينيه الخضراوين مع مساعده (عصام) النحيل الذي التصق به. بالجهة اليسرى وقفت (ماري) بعينيها المسحوبتين، حاولت أن تجعلهما مرعبتين إلا أنها فشلت فشلًا ذريعًا... فبدتا غبيتين مضحكتين. خلفه وقف (رويد) ونظرات الحنق تعلو الدائرة كلها.

«أووه، ماذا لدينا هنا؟ دائرة العار؟»

قال (مناور) ضاحكًا وهو يحك رأسه الذي انتابه الصلع، محاولًا إخفاء توتره والخوف الذي غزا قلبه... فها هو ذا يجابه الخوف من خطوة العدو القادمة... وهذا أسوأ من الخطوة بحد ذاتها.

استمر الطاقم بالصمت للحظات، قبل أن يُخرِج (رويد) سكينًا خبأها في جيبه... متقدّمًا نحو (مناور) بتهور! عاد الأخير للوراء حتى ارتطم بجدار المقصورة، وقد تلاشت ابتسامته وعيناه التحفتا بالذعر في ثانية... قال وهو يرفع يديه:

«(رويد)، اهدأ أرجوك! أنزل هذه السكين يا مجنون!»

«حسنًا أيها المبتز اللعين، ستنتهي المهزلة التي تقوم بها الآن وفي هذه اللحظة... وإما أن تنفذ طلباتنا الصغيرة وإلا فسنغرز هذه السكين في عنقك بلا رحمة!»

قالت (روان) وهي تنظر لأظافرها ببرود، لترفع عينيها نحوه وهو يومئ بذعر.

عرضت طلبها القبيح أيما قبح، واستشاط المبتز غضبًا رافضًا تنفيذه... إلا أن السكين التي قرّبها (رويد) من عنقه ومسحها برفق على عنقه... كانت أكبر من حشمته وحيائه من تنفيذ طلبهم المشين. التقطوا له مجموعةً من الصور القبيحة المشينة، بأكثر الأوضاع خلاعةً وقد أجبروه أن تنكشف فيها عورته... ليقع عليه الانتقام بأبشع الطرق.

«بدل لبس العمل واجلس في أي مقعد شئت، واذهب للحمام إن أردت لكن عارك غير قابل للغسل... مرحبًا بك في دائرة العار»

قال (فراس) وهو يضحك ليتبعه البقية ضاحكين، وسرعان ما أخذ (مناور) الملابس وهرع للحمام وقد سقطت دمعةٌ ذليلة من عينه... بعد أن تذوق حرارة سوط الانتقام على ظهره وغُسِل بالعار.

عاد البقية ليكملوا عملهم بكل أريحية وهدوء، وقد اطمأنت قلوبهم بعد ابتزازهم للمبتز الأعظم... وكيف له أن يبتزهم بعد كل ما حملوه ضده. قادتهم العجلة فقد ضيعوا الكثير من الوقت في فعل ما فعلوا، والركاب قد اقترب موعد صعودهم للطائرة... أولئك الركاب الذين لم يعلموا أن حياتهم ستنقلب رأسًا على عقب.

الوقت الحالي...

عارٌ غير قابل للغسل

«آهٍ يا ملاعين، كيف تحملتم رؤية ذلك المنظر المقزز وإرغام المسكين على نزع بنطاله وما يستره و...»

قاطعني (رويد) معترضًا:

«مسكين؟ قد نال اللعين ما يستحقه حين صورناه، وهو الذي كان يتتبع فضائحنا ويتلذذ بالنظر لها!»

ضيّقتُ حدقتي وأنا أنظر إليه، أنظر إلى غسيل العار الذي ملأ محياه وهو يحكي القصة... ولم أعلم أألومه أم أتعاطف معه.

«ما الذي طمأنكم أني لن أقوم بفضحكم ونشر غسيلكم، وما الذي يضمن لي أن أيديكم بريئة من الدماء؟»

سألتُهُ وأنا أتمحّصه، اعتدل في جلسته وأجاب بثقة:

«كلامك لا دليل عليه، حتى وجودي معك ليس دليلًا... ولكن السبب الأسامي الذي سيمنعك من التحدث للشرطة هو صديقتك»

«صديقتي من؟»

«من غيرها، تلك السجينة التي ورطتك معها. قد تكون الجانية فعلًا وحديثك للشرطة سيجعلها تحت المقصلة(*) بلا شك، فعلى حسب اعتقادي أن (مناور) كان يهددها أيضًا ويبتزها لكن لعلها لم تخبرك... وقد حدثت مشادّةٌ كلامية بينهما لكنها لم تستمر»

كان قلبي يركض بعنف مُسابقًا الريح، من هول الصدمات المتتالية والحقائق التي كُشِفت لي... وما أدراني إن كانت تلك حقائق أو خداعًا؟!

«لقد أخفيت علي الجزء الأهم في القصة، متى دخل (مناور) الحمام ومن دخل بعده؟!»

أطلقَ (رويد) تنهيدةً عميقة ثم قال وهو يعقد ساقيه:

«هنا المصيبة العظمى، كنا بالمقدمة وكان هو يجلس بالخلف ولم يره أحد يدخل للحمام حتى دخلت أنت ورأيته جثةً هامدة... لذلك أقول لك إن أصابع الاتهام تشير إلى (شوق) وبقوة»

---

* المقصلة: آلة استخدمت في الأصل للإعدام وذلك في فرنسا، إلا أنها طورت بعد ذلك وتستعمل لأغراض مختلفة منها الصناعية والمكتبية. وتتكون من شفرة حديدية حادة تسقط من أعلى فتهوي على رقبة الذي يراد إعدامه وتقطع رقبته.

باغتّه بسؤالٍ صعق عقله:

«وما الذي يضمن لي أن القاتل هددكم حتى؟ قد تكون تلك خطة منكم لتوريطي كي لا تنزل عليكم المقصلة، وتكونوا أنتم مشتركين في تلك الجريمة منذ البداية!»

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقش

أجاب بتهكم:

«وهل سنختار طائرة مليئةً بالشهود من بين كل الأماكن في العالم كي نقتله فيها إن رغبنا؟ في الطائرة التي نعمل بها جميعًا! حكّم عقلك أرجوك، ركز على الهدف الأساسي وهو العثور على القاتل لأنه لا مفر من أنه كان أحد الركاب... فمن له مصلحةٌ لقتل (مناور)؟»

وقفتُ من مكاني واقتربتُ من أذنه لأهمس:

«أنتم، كل المصلحة لكم في قتله»

اتجهتُ لباب المقهى متجاهلًا بقية حديثه، بعد أن تسبب لي بمشكلات ثقة قوية تجاه من حولي... من يكذب ومن يقول الحقيقة؟ من يضمر الشر لي وينوي لي المقصلة، ومن يرغب بالخير لي ويريد إخراجي من المأزق؟ لا حل آخر سوى التوجه لمركز الشرطة للإبلاغ عن كل ما سمعت من ذاك الأبله، حتى أبعد التهم عن نفسي فقط...

ولا أكترث لمن سيذهب ضحية تلك الاتهامات حتى لو كانت الحمقاء السجينة.

سيطر التفكير المفرط على عقلي حتى أدخلتُ المفتاح في مزلاج الباب، لأدخل شقتي الصغيرة وأتفاجأ مجدّدًا بمن كانت تجلس على الأريكة أمام التلفاز... وبمجرد رؤيتي لها داهمني شعورٌ واحدٌ فقط. هرعتُ لاحتضانها وهي تسأل السؤال وتعتب العتب ذاته بكل حنان، العتب الذي توجهه جميع أمهات العالم لأبنائهم:

«أهكذا تختفي بالأيام ولا أسمع صوتك أنا أو أبوك حتى! كيف حالك؟»

«أعتذر يا أمي، كل شيء على ما يرام فقط انشغلتُ مع عملي بين السماء والأرض»

قلتُها ونزعتُ حذائي ثم جلست بجوارها واستلقيتُ لأضع رأسي على حجرها، حابسًا دموعي رغمًا عني حين سألتني عن أحوالي... وأي رجلٍ يمتلك الجرأة لغمّ أمه بهمومه ومشكلاته الخاصة؟ لكن ما فعلته كان كفيلًا بإخبارها بكل شيء، لتمسح على رأسي وهي لا تزال ترى فيّ طفلًا مهما بلغت من العمر... قائلةً:

«لا بأس يا بني، غدًا أجمل... لا تجعل أحدًا يثقلك بالأحزان والهموم فوق همومك بين السماء والأرض»

قالت بحنانٍ اختلط بالتهكم كما كانت عادتها، حينها فقط عرفتُ الشخص الوحيد الذي يستحق الثقة في تلك الفترة العصيبة... ومن غيرها يستحق؟

السجينة

سحبتُ نفسًا عميقًا ناظرًا للبناية المهيبة، ترددتُ كثيرًا في الذهاب وجزءٌ كبيرٌ من عقلي رفض تلبية الطلب... لكن فضولي والأسئلة الكثيرة التي ملأت عقلي أرغمتني على الذهاب. دخلتُ البناية لأتوقف عند رجال الأمن الذين طلبوا ما يُثبت هويتي، دقائق وسمحوا لي بالدخول لذلك المبنى الكئيب... لترافقني إحدى السجانات الغليظات العريضات المناكب إلى وجهتي. تجنبتُ النظر المطول لها لسلامة عيني، وما هي سوى بضع خطواتٍ حتى رأيتُ السجينة خلف الزجاج... موجهةً نظرها للأمام وقد دمرت الهموم ملامحها أيما تدمير.

أدخلتني السجّانة لتلك الغرفة التي صُفدت فيها (شوق) للطاولة، وشعرها الأسود المجعد يصرخُ غمًّا... التقت أعيننا وكلي حقدٌ تجاهها لتبادلني نظراتها الباردة القاتلة. جلستُ مقابلها وقد أصبحنا وحدنا، لأنظر لمحياها البارد المائل للسمرة... بعد أن انتفخت عيناها البنيتان بشدة.

«نعم؟ قالوا إنك طلبتِ رؤيتي»

تحدثتُ بغلظة شديدة، وكانت تستحقها بجدارة.

استعدت للحديث وهي تسند ظهرها على الكرسي، وصوتُ السلسلة التي انسحبت على الطاولة كان المتحدث الوحيد... قبل أن تنطق:

«انظر يا (عثمان)، لو حلفتُ لك من اليوم حتى الغد إن أحدهم هددني بقتلي وقتل أهلي للاعتراف بجريمةٍ لم أرتكبها ولتوريطك معي فلن تصدقني... لكن هذا ما حدث بالضبط...»

«ما قصة هذا الواحد الذي هدد الجميع ليفعلوا ما فعلوا؟! أريد أن أراه بالله»

قاطعتُها بفظاظة ولم تمتنع عن استقبال المقاطعة، عادت للتحدث:

«أعرف شعورك والله، وأنا مستعدةٌ لإجابة كل الأسئلة التي لديك»

صمتُّ للحظاتٍ وقبضتي مشدودة، لا أريد أن أنفعل ويُجَن جنوني... لأقول بعدها:

«سأسألك وإياكِ والكذب، ما الذي حدث بينك وبين (مناور) بالضبط؟! ولا تقنعيني أن وجودك هناك كان مصادفة!»

أغمضَت عينيها وهي تؤمئ برأسها، هناك فقط علمَت أن عليها التحدث وبأسرع وقت... لأني أعلم أكثر مما كانت تظن.

«نعم، كنتِ على متن تلك الطائرة من أجل موضوعٍ ما مع (مناور)»

صُعِقت من حديثي ذاك وفتحت عينيها على مصاريعهما، لتتساءل:

«كيف عرفت كل ذلك؟»

هناك فقط تحققت من صحة كلام (رويد) وقصته، لأعقد ساقي قائلًا:

«دعي هذا الموضوع جانبًا وأخبريني عن القصة، أرجوكِ لا تضيعي مزيدًا من الوقت كي نحل موضوع اعترافك الأبله قبل أن يقص رقبتك قصًّا»

بدأت بالسرد دون مقدمات:

«لقد كان (مناور) يهددني بفضيحةٍ كان يمسكها ضدي، على الرغم من عشقه لي إلا أنه أجبرني أن أفعل ما يريد وإلا نشر تلك الفضيحة... أنا اجتزتُ اختبارات التدريب كلها عن طريق تزوير النتائج ولم أخضع حتى للفحص الطبي كبقيتكم ولا حتى اختبار الطائرة النهائي. وقد علم اللعين عن ذلك ولديه كل ما يثبت ولا أعلم كيف وقع على أوراق الفحص والسجلات!»

قلتُ بتهكّم:

«ليته وصل لذلك فقط»

قطّبت حاجبيها دون فهم، ثم أكملت غير مكترثة:

«منذ جاءني بذلك التهديد الذي سيفقدني وظيفتي ومستقبلي وقد يعرضني للمحاكمات... وأنا أنفذ كل ما يأمرني به. في تلك الطائرة طلب سفري فيها ولم أعلم السبب، وقد كنتُ مسافرةً للعلاج فأرغمني على قطع سفري والعودة معه في الرحلة ذاتها. اعتقدتُ أنه المضيف لأنه قال لي ذلك... لأتفاجأ بكونه أحد الركاب. قال لي إنه سيذهب للحمام ولم أعرف ما حصل له بعدها حتى رأيته أنت، ثم أخبرتني بعد ذلك»

اللعنة! لا أحد يعرف ما حصل له تلك الفترة، منذ ذهب للحمام حتى وجدتُهُ أنا!

اعتدلتُ في جلستي وقلتُ لها وعينايَ لا تفارقان عينيها:

«كيف جاءك التهديد بالضبط؟»

لم تتريث وأجابت مباشرةً:

«وجدتُ ورقةً مررها أحدهم تحت باب زنزانتي، هددني فيها لو لم أقر بارتكابي للجريمة وإقحامك معي فيها»

أجواءُ الصمت والارتياب اجتاحت الغرفة بعد حديثنا، لم أعلم ما أقول أكثر... ولم أعرف أأثق بكلامها أم أن كل ما قالته محض كذب. لم تغادر عينايَ عينيها البنيتين قط، وكأنها تتحداني بصدقها وأنا أتحداها بالنقيض... وأراقب بصمت ولي حرية التصديق والتكذيب.

«المهم، حتى لو لم تصدقني فقد أبلغت المحقق بكل ما أخبرتك به ولا أعلم إن كانت المقصلة ستقع على رأسي بسبب اعترافي... لكني لم أكن لأورطك معي بالطبع. وقد بالغ في تطميني تجاه حماية أهلي والأقربين، فسيضع حراسةً دائمة عند المنزل. لا أهتم إن كنتُ سأخسر وظيفتي فقد أخذت دوامة هذه الرحلة عقلي للحضيض، أريد كل شيءٍ أن ينتهي حتى لو بموتي! وكنصيحة أخيرةٍ فقد لا يسمحون لك بزيارتي بعد الآن، ضع حول كل من حولك علامة استفهام كبيرة، حتى خطيبتك (أريج)... أتعلمُ أني وجدتُ محادثاتٍ بينها وبين (مناور)؟»

هناك وهناك فقط، اشتطتُ غضبًا وكاد وجهي أن يتلوّن بالحُمرة... قبضتُ على فكي وقرّبتُ وجهي من وجهها وهمستُ:

«أما هي فلا تُدخليها بأي مما حدث!»

جميع الحقوق محفوظة لقناة زَقَش

أرجعتْ رأسها للوراء ورفعت يدها وهي تقطب حاجبيها، لتُشير

بعينيها للباب خلفي. التفتُّ لأرى السجانة تنظر بريبة، فتراجعتُ وأسندتُ ظهري على الكرسي حتى لا أزيد المصيبة مصائب أعظم... وحينها فقط قررت (شوق) إنهاء الجلسة ضاربةً الطاولة لتقول ما ابتدأ الشكوك في قلبي:

«انظر لمحادثاتها في الجوال وستفهم كل شيء»

أخذتها السجانة بعيدًا ولم أرَ منها سوى ظهرها، لتتركني مع أفكاري السوداوية التي أحتاج أن ينقذني منها أحد... ولم ألبث أن استُجيبت تمنياتي. غادرتُ الغرفة لأرَى (أبا تركي) بانتظاري، ليقول لي بوجهٍ جاد:

«لقد أنكر (رويد) كل شيءٍ أخبرتنا به، وكون شهود العيان رأوكما معًا في المقهى فهذا ليس دليلًا لإثبات ما قلته»

سُحقًا لهم بحق! لا يريدون خسارة وظائفهم فأنكروا كل شيء، توجّب عليّ معرفة أنه لن يعترف أبدًا اعترافًا كهذا... يورطه ويورّط مجموعة العار كما أصبحتُ أسميهم. ربّتَ على كتفي وكأنه مقتنعٌ بكلامي لكن لا شيء بيده، مجرد الإحساس ليسَ دليلًا كافيًا.

غادرتُ مبنى الاحتجاز النسائي وركبتُ سيارتي، في تلك المدينة المشمسة الرطبة... وكم أمقتُ شعور الرطوبة القاتل. سُقتُ بهدوء

خارجي فقط، لكن الكثير من الأسئلة والأفكار تتصارع في دماغي. ما الذي حدث بالضبط؟ كيف تحولت حياتي من تلك الهادئة بين الكتابة والقراءة، وبين السماء والأرض في تلك الرحلات الجوية اليومية... إلى متهم أُقحِمَ دون إرادته في جريمة قتل كان يكتب عن مثيلاتها كل يوم ويصِفُها بكل دقة!

ركنتُ سيارتي وصعدتُ لشقتي، وكل ما أحتاجه هو الجلوس وحدي... لكن شكوكي أوصلتني لنقطةٍ حساسة بعد أن ولّدتها (شوق) بعقلي! لِمَ كانت (أريج) تشك في تورط (شوق) بتلك الجريمة؟ لِمَ (شوق) بالذات؟ أمعقولٌ أن الموضوع كان مجرد غيرة؟

توقفتْ كل تلك الأسئلة والأفكار بمجرد فتحي للباب، فقد وجدتُ ورقةً مطويةً تُركت على الأرض وانحنيتُ لالتقاطها... فتحتُها وليتني لم أفتحها! كُتِبَت بالحاسب الآلي وطُبِعت:

«إن لم تتوقف عن البحث والتقصّي وإقحام أنفك فيما لا يعنيك، فلن أتردد بإيذاء من تحب ابتداءً بالفتاة التي تُحب وانتهاءً بالمرأة التي أنجبتك!»

مشاكل ثقة

لا تزال عيناها الواسعتان تتملكان سحرًا خاصًا، فبالرغم من الشكوك التي غزت عقلي إلا أن معظمها تلاشى بمجرد رؤيتهما... بالله كيف يمكن لبشرٍ أن يرتاب بعد رؤية تينك العينين الساحرتين؟ وقعتْ عيناها عليّ أخيرًا فما كان منها سوى إبراز أنيابها الجميلة، خلف الابتسامة التي لم تفشل أن تظهرها كلما رأتني. دخلت المقهى وهي تحمل حقيبتها الصغيرة بيديها الاثنتين، ضامّةً كتفيها حتى وصلت لطاولتي... ولم أتحمّل سوى احتضانها بكل ما أوتيت من قوة.

سحبتُ لها الكرسي لتجلس، وهرعتُ لأجلب قهوتها كما جرت العادة... مُفكّرًا في طريقة كي أفاتحها بالموضوع. وضعتُ قهوتها السوداء المريرة أمامها، وكأس الشاي بجواره وجلستُ جوارها... لتسألني وكأنها تقرأ أفكاري:

«(عثمان)، ما المشكلة؟»

ثبتت عينيها الواسعتين على عيني فلم أستطع الفرار منهما والكذب، فاعتدلتُ في جلستي وقلتُ لها:

«(أريج) ما أنا على وشك قوله قد يثبت جنوني، لكني أرجو أن لا

تسيئي فهمي ولا تعتبريه أي شيءٍ سوى سؤال... ألم نتفق أن نسأل بعضنا البعض حين تتلاعب بنا عقولنا؟»

زاد قلقها واقتربت مني وهي تتساءل، واضعةً يدها الناعمة الحانية على يدي:

«(عثمان)، ما الذي حدث أرجوك؟»

«هل تحدثتِ مع (مناور) قبل الجريمة؟»

باغتها السؤال من حيث لم تحتسب، أغمضتْ عينيها وسحبت نفسًا عميقًا ثم أطلقته... فتحتْ عينيها ببطء وقالت بكل هدوء:

«قد تعاهدنا أيضًا أن أجيبك بالصدق فور سؤالك، وأريدك أن تتفهم ما فعلت وما حدث أرجوك... عِدني بذلك»

كان صدري يشتعل نارًا، وأثبتتْ عيناىَ قلقي الشديد مما هي على وشك قوله... لكني سيطرت على أعصابي وأومأتُ لها وأنا أشد على يدها.

«لقد أتاني (مناور) في إحدى جلسات التصوير، كان يجلس على طاولةٍ بعيدة وعندما انتهيت من التصوير أتى ليحدثني... كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها. اعتقدتُ أنه صاحب عمل جديد يرغب بالتعاقد معي أو ما شابه، لذلك لم أستغرب حديثه معي»

غزت عقلي الكثير والكثير من الأسئلة، لِمَ لم تخبرني منذ حصل معها كل ذلك؟ لكنني لم أكُن لأستعجل وأقاطعها، فتركت نيران قلبي تتفاقم علّ حديثها يخمد تلك النيران... وقد كانت محقة فكون (أريج) عارضة أزياء لن تستغرب حديث (مناور) معها قبل أن تعرف من يكون.

«بعد أن جلس معي أخبرني أنه زميلكم في الشركة، وقال لي إنه يشك بكون (شوق) تتقرب إليك وتتودد... وذلك ضايقه كثيرًا كونهما على ارتباطٍ وعلاقة. صدقني (عثمان) أني وقفتُ ذلك الوقتَ وطردتُهُ من المكان، وأخبرتهُ ألا يقترب مني أبدًا وإلا جمعتُ عليه الناس... لكنه أراني الكثير من مقاطع الفيديو التي تظهركما أثناء العمل وطريقة مزاحكما وذلك أشعل نارًا في صدري لم يستطع إخمادها أحدٌ حتى الآن...»

قاطعتُها بغضب فلم أتحمل كل ذلك:

«توجب عليك الحديث معي بدلًا عن الحديث معه، كان من المفترض أن تسأليني!»

لم تقل شيئًا واكتفت بالنظر لي بعينيها الواسعتين. مرّت لحظات صمتٍ عصيبة، كلٌّ يكتم الكثير من الكلمات في جوفه المشتعل... لكن

التظاهر بالصبر منع كلينا أن يخرجها. أكملت حديثها:

«المهم أني سألته بعدها عن المغزى من أن يريني كل تلك المقاطع، ما الذي يريده مني بالضبط؟ وهناك فقط ارتكبت غلطةً أتمنى أن تسامحني عليها، أخبرني أنه سيصارحكما بتلك المقاطع على متن إحدى الرحلات... لتتوقفا عن ذلك فيستفيد كلانا... وهو يكرهك ويكره صداقتكما فسيرتاح...»

«ألم تقولي مرارًا وتكرارًا إن صداقتي مع (شوق) لا تزعجك أبدًا؟!»

«كنتُ أكذب! تظاهرتُ أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام، لكن صداقتكما تعدت الحدود يا (عثمان)! كل يوم أقول إن الغيرة ستتلاشى وإن عقلي يلعب بي وهذا كل شيء، لكن عند رؤيتي لتلك المقاطع تيقنتُ أني لن أكون على ما يرام مع (شوق) اللعينة تلك!»

انفجرتْ بحديثٍ كانت تخبؤه منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا، وقد نجحت كثيرًا في إخفائه... تساقطت الدموع على وجنتيها فشددتُ على يديها وأكملتْ:

«المهم أني أخذتُ رقمه وقال إنه سيصارحك بالمقاطع أنت و(شوق) في تلك الطائرة المشؤومة اللعينة، وقد خطط أن تكون

هناك بناءً على تاريخ أقنعتُك أن تعود فيه... أنا آسفة للغاية انظر هذه المحادثات حتى لا يساورك الشك»

أرتني المحادثات والدموع لا تزال تتساقط على محجرها، شددتُ على يدها بينما كانت تقلب في المحادثات بينها وبينه لتثبت كلامها... ولم يساورني الشك في صحة كلامها لكن كان عندي سؤال واحد.

«لِمَ خبأتِ كل ما حدث عني حتى هذه اللحظة؟ كان من المفترض أن تخبريني على الأقل بعد كل المصائب التي حدثت!»

«لقد خفت، واعتقدتُ أن المسألة إجراءات قانونية وستنتهي سريعًا... لم أعلم أن كل ذلك سيحدث لك في تلك الطائرة»

لم أعلم ما أقول، نيران صدري تفاقمت وأصبحت تتغذى على أحشائي... وقد اعتقدتُ أن كلامها سيخفف عني كل شيء.

«لِمَ كل هذا يا (أريج)؟ كلمةٌ واحدةٌ منك تخبرينني فيها أن وجود (شوق) يزعجك كانت ستجعلني أبتعد عنها! لكن عوضًا عن ذلك تظاهرتِ أن كل شيء على ما يرام وها هي ذي النتيجة، تورطتُ في تلك الطائرة... ودخلتُ كل تلك الدوامات. حتى تلك المقاطع التي أريتني إياها لم أكُن لأسميها فضيحة، ولو أراني اللعين... أستغفر الله

لن أتكلم عن شخص ميت. لو أراني تلك المقاطع فليسَ فيها ما يعيبنا و...»

خشيتُ أن أقول كلامًا أندمُ عليه بعدها، وقد اعترتني مشكلات الثقة من رأسي لأخمص قدمي... وقفتُ من مكاني وغادرتُ المقهى على عجل لأعود للمنزل... متجاهلًا محاولاتها لاستيقافي. من الآن وصاعدًا ثقتي بربي ثم بنفسي فقط، من يعلم ما قد يخبؤه الباقون؟!

عندما وصلتُ للعمارة وجدتُ (أبا تركي) واقفًا أمامها بانتظاري، جيد... لنرَ ما توصل إليه من خلال ورقة التهديد. خرجتُ من السيارة وصافحتهُ، ليقول لي وهو يعدل شماغه:

«قد أحطنا عمارتك بالحماية اللازمة»

أشار بنظره لسيارة متوقفة بعيدًا عن العمارة، لتضاء أنوارها الأمامية مرتين... علمتُ وقتها أن السيارة تخص رجال الأمن تحسّبًا للتهديد الموجود في الرسالة.

«ومنزل والدَيك أيضًا شددنا عليه الحماية، ومنزل خطيبتك (أريج)... لا تقلق»

سبقني بحديثه قبل أن أسأله، فهو لا يحب تضييع الوقت أبدًا.. لكني سألتهُ باستعجال:

«ماذا عن الورقة نفسها، هل ستدلكم على أي شيء؟»

هزّ رأسه بكل يأس قائلًا:

«لا ورقة تهديدك أو تهديد (شوق) ستوصلنا لأي مكان خصوصًا أنها كتبت عن طريق الحاسوب، فحتى الخط لا نستطيع مقارنته بخطوط أخرى. ولم يرَ أحدٌ من أهل الحي أو العمارة الشخص الذي وضع لك ورقة التهديد»

وقفَ كلانا أمام باب العمارة بإحباط، وكأننا ننتظر معجزةً لتحدث وتدلنا على القاتل.

«المحير هو معرفة القاتل بكل ما يدور! هو يعرف عناويننا وطريقة الوصول لنا، ويعرف المستجدات أولًا بأول... كيف يفعل اللعين كل ذلك؟!

نفّستُ عما يجول بعقلي أمام المحقق المسؤول، والذي أعتقد أن السؤال ذاته يدور بعقله... فلم يكُن منه سوى الاكتفاء بهز كتفيه والنظر للأمام.

«كل مستجد يجد عن القضية لا يدلنا على القاتل أبدًا بل القتيل نفسه، كل قصة جديدة تكشف لنا عن سوء الضحية... أما القاتل فلا شيء عنه»

نطقَ (أبو تركي) بعد صمتٍ طويل، حاكًّا لحيته الرتيبة على وجهه المستدير.

قلتُ له وأنا أضع يدي على رأسي:

«آهخخ اعذرني، لم أعزمك للداخل فقد انشغلت بأفكاري... تفضل لنشرب فنجان قهوة معًا»

هزّ رأسه واستعد للمغادرة فألزمتُهُ الدعوة قائلًا وأنا أتبسّم:

«ألا ترغب بدخول غرفة المعيشة التي وجدتم فيها سلاح الجريمة؟ وتناول فنجان قهوةٍ هناك مع أحد المتهمين؟»

تردد قليلًا ثم قبلَ وهو يضحك ويقول:

«حسنًا، ولكن فنجانًا واحدًا فقط»

دخل كلانا وكنتُ أنوي إخباره قصة (أريج) مع (مناور) لكن شيئًا ما منعني من الحديث وراء ظهرها، شعورٌ ما جعلني أخفي القصة وأحتفظ بها لنفسي حتى لا تتورط بأي شيء... ثم إذا ما نويتُ إخباره أخبرها أولًا حتى تكون مستعدة. ذاك مقدار الحب الذي خبأه قلبي لها، الخوف من أن يصيبها أدنى أذًى.

عراكٌ داخلي

كنتُ أرتشفُ كوب الشاي بكل هدوء، هدوء تناقض مع العراك الداخلي وفقدان الثقة بالجميع... ناظرًا للأسفل من زجاج الطابق الرابع الخاص بالمقهى. غاصت عيني في الفوضى التي أحدثتها السيارات في الشارع، في ذلك الوقت المبكر من الصباح. لستُ إنسانًا صباحيًا والجميعُ يعلمون ذلك، لكن القانون أرغمني على الاستيقاظ باكرًا فقررتُ الذهاب للمحكمة فور استيقاظي... لأرتشف الشاي الذي يبتدئ به يومي على عكس أصحاب القهوة المريرة... شاي الصباح.

«هل لي أن أجلس معك قليلًا؟»

التفتُّ لصاحب الصوت فلم أجد سوى أخِي القتيل، (عاطف) الذي حمل بعض ملامح أخيه الراحل... لكنه لا يشابهه كثيرًا.

«بالطبع تفضل»

قلتُ له مقطّبًا حاجبيّ فتلك المرة الأولى التي أجلس معه فيها، ما الذي يريد أن يقوله يا ترى؟ وهل يعتقد أن لي يدًا في قتل أخيه؟

اتجه نحو الزجاج قبل أن يجلس، نظر للأسفل حيث الشارع

وسرعان ما انتفض جسده مع إصدار صوتٍ غريب... جعلني أعتدل في جلستي قبل أن يتراجع للخلف وهو يغمض عينيه قائلًا:

«لن أتخطى خوفي من المرتفعات أبدًا!»

تنهدتُ بعُمق حين اتضح أن الأمر لا يتعدى فوبيا من المرتفعات، لا ينقصنا جثة أخرى أو إصابة وأين؟ وسط أرض المحكمة وبجواري!

جلسَ بعيدًا عن النافذة وعقد ذراعيه على الطاولة قائلًا:

«أنتَ الوحيد الذي أطلق القانون سراحك مبكّرًا»

لم أعرف كيف أرد فقد كانت تلك المحادثة غير مريحة على الإطلاق، لربما للظروف التي صاحبتها أو لكون (عاطف) غريبًا نوعًا ما باقترابه ذاك.

«لكنكم لا تعرفون أخي كما عرفته أنا، لم تكونوا تستحقون وجوده بينكم... كان الجميع يمقتونه على الرغم من أن كل ما كان يفعله هو محاولة المساعدة»

استمعتُ لحديثه عن أخيه دون أن أرد عليه، لن أكون أنا الذي أخبره أن أخاه كان مبتزًّا آخر أيام حياته... هو يريد فقط أن يفرغ ما بجعبته من كلام لأحد منّا. نظرتُ لساعتي، لم يتبقّ لموعد المحكمة سوى بضع دقائق... عليّ أن أنزل الآن. وقفتُ وتبعني هو قائلًا:

«ليس الأمر وكأنك ذاهبٌ للسينما لتحضر مبكّرًا وتلحق الفلم من أوله، عادةً ما يتأخر القضاة في القدوم»

منذ بدأ يتحدث لم أعرف كيف أرد عليه، وإن كان طيّبًا فهذا الشخص غير مريح على الإطلاق... مشينا نحو المصعد ونزلنا للدور الأول مع الكثير من الناس بين محامين وشهود وموظفين. وصلنا للدائرة المطلوبة أخيرًا ورأيتُها تقِفُ على ناصية الدائرة، بعينيها الواسعتين تتلفّتُ بقلق وهي على وشك الانهيار... وبمجرد وقوع نظرها عليّ خفّ قلقها حتى كاد يتلاشى.

ذاتُ الزمام، أعترفُ أن الراحة غمرتني والطمأنينة جرّاء عينيها المريحتين، مدّت يدها ولم أكُن لأخذلها رغم الشكوك التي تطايرت في عقلي... أمسكتُ يدها وهرعنا للداخل بمشاعر مختلطة لم أعرف تصنيفها.

رجال الادعاء العام مترقبون لحضور القاضي، (شوق) بأصفادها بجوار السجانة، (مجد) جالسةٌ بجانبها، طاقم الطائرة المشؤوم، أنا و(أريج) خلفهم بجوار المحقق الحاذق (أديم).

«هل أنت بخير يا رجل؟»

همسَ لي وقد جلسنا بجواره، لأسحبَ نفسًا عميقًا وأرد على سؤاله بسؤال:

«وهل سيكون أي أحد بخير بعد كل ما حدث؟»

ربّتَ على كتفي وهو ينظر لكرسي القاضي الفارغ، الذي ما أن مضت دقائق معدودة حتى دخل للدائرة... وابتدأت الجلسة.

سرت الجلسة الروتينية حتى أتى دور المحامية (مجد) للحديث دفاعًا عن (شوق)، وقفت أمام القاضي لتقول:

«حضرة القاضي، تتراجع موكلتي عن اعترافها السابق الذي صدر جرّاء تهديد القاتل لها... وتود الإدلاء بشهادتها الحقيقية. الضحية (مناور) كان يهدد موكلتي بنشر مقاطع فيديو لها ويبتزها لتطيعه، وأراها تلك المقاطع على متن الطائرة... وكذلك فعل مع طاقم الطائرة كلهم»

رمت المحامية القنبلة على مسامع الجميع، وجزءٌ كبيرٌ داخلي شعر بالارتياح... اعتدل المحقق المسؤول عن القضية (أبو تركي) وهو يركز بكل حواسه كما هو الحال مع الحضور جميعهم. استمرت بالحديث عن كل الحقائق التي دارت مع (مناور) قبل وفاته – أو ما ظهر منها بالأحرى – إلى أن وصلت لنقطةٍ جمدت الدماء في عروقي، قالت

بثقتها المعتادة:

«أرغب يا حضرة القاضي بدعوة (أريج بنت...) للشهادة»

وقفتْ بعد تحول ملامحها للحدة والجدية التامة، مشت نحو منصة الشهود بثقة يشوبها الخوف... الخوف الذي كان يعتريني... ما الذي ستقوله بالضبط؟ القصة التي قالتها لي؟

لِمَ أشعر بالخوف الشديد؟ ليسَ على نفسي أبدًا، بل عليها هي! ماذا لو كان ما ستقوله يؤذيها ويعرضها للخطر؟

استقرت على المنصة وسألها القاضي:

«(أريج بنت...) أتقسمين بالله إنكِ ستقولين الحقيقة؟»

نطقت وهي تنظر لي بثقة اختبأ التوتر خلفها، ووحدي أستطيع قراءة ذلك الخوف:

«أقسم بالله العظيم أن أقول الحقيقة»

قاسٍ للغاية، شعور العجز عن حماية أقرب الناس لك... عمن عهدت أن لن يؤذيه أحد. ها هي ذي الفتاة التي أحب، ذاتُ الزمام تقفُ أمام القانون وميزان العدل... وأنا أجلس مكتوف الأيدي لا حول لي للتدخل والحديث بدلًا عنها. وما أدراني، علّ ميزان العدل أعدلُ من قلبي الذي طغى عليه الشك.

سألتها المحامية:

«هلّا أخبرتِنا القصة التي حدثت مع (مناور) قبل وفاته؟»

أستطيع سماع دقات قلبي، قلبي الذي نبض في كل جزءٍ من جسدي... وأعصابي تكاد تتقطع من شدتها. حكت القصة التي أخبرتني بها كاملةً أمام القضاء، علّ القضاء ينصفها أمام قلبي الذي أبى إلا أن يغضب... ويثير الشكوك اللعينة التي قضمته قضمًا... قلبي الذي لم يسامحها على إخفاء قصتها كل ذلك الوقت.

عادتْ للجلوس وهي ترجو أن شهادتها تلك لامست قلبي، وأنصفتها ولو قليلًا... تبسّمت رغم الظروف فبادلتها الابتسامة... ولا يسع المرء إلا رد ابتسامتها ذات الأنياب. دعوا الطاقم ليشهد فأنكر بشدة القصة كلها، وحُب المال والخوف من الفضيحة أرغماهم على كتمان الحقيقة... كما توقعت بالضبط من مجموعة العار.

انتهت تلك الجلسة بأمر القاضي بالإفراج عن (شوق) حتى الجلسة التالية، وكم كانت تلك الجلسة شديدة التوتر... هل سيصدق القضاء تلك القصة التي صدقها قلبي؟ وما يدريني بعد اليوم أن أي أحدٍ يقول الحقيقة؟

وقفتُ من مكاني وهممتُ بالمغادرة لتمسك يدي بقوة وتطلب:

«أرجوك، هلّا تحدثنا قليلًا؟»

شددتُ على يدها وصمتُّ للحظات، ولم أعهد هذا السكوت معها... لكني أجبتُها بما تبقّي من لُطفٍ في قلبي:

«هلّا أعطيتِني بعض الوقت حتى أهدأ ويهدأ كل شيء؟»

لم أكُن مقتنعًا بما أقول، فلا أحد يعلم متى يهدأ ذلك الكابوس وكم سيستمر... هذا إن كان سيهدأ أصلًا! غادرتُ الدائرة محاولًا مقاومة عينيها الواسعتين، تحاشيتُ النظر حتى لا أخضع لسحرهما... وغضبُ قلبي يأبى الهدوء ونيرانه تشتعل.

جميع الحقوق محفوظة لقناة زقّش

انتفاضة

مضت أيامي ثقيلةً للغاية، لا شيء يشغلني فقد منحوا كل من كان على متن تلك الرحلة المشؤومة إجازةً لحضور المحاكمات... لتكون تلك أول مرةً أكره فيها الإجازات في حياتي! ومن ذا الذي يريد إجازةً لحضور محكمة؟

أتهرب من لقاء الفتاة التي أحب بحجة أني أحتاج بعض الوقت، وأعلمُ يقينًا أن السبب الحقيقي هو هروبي من الثقة بأي أحد... حتى تظهر الحقيقة الكاملة. تمنى قلبي أن يراها لكن عقلي تغلّب عليه، تغلّب على عينيها الواسعتين اللطيفتين لأول مرةٍ في حياته... وكم كان ذلك الشعور موجِعًا. أردتُ بشدة مسامحتها على فعلتها، لكني شعرتُ باستغفال قوي من أقرب الناس إلى قلبي... فاستشاط قلبي غضبًا وقرر الثأر على طريقته بعدم رؤيتها... لكنه لم يكن يعلم أنه بتلك الطريقة ينتقم مني ومنها في الآن ذاته ومن نفسه حتى.

أقضي كل وقتي في شقتي الكئيبة، بين زيارةٍ لوالديّ وأصدقائي مصحوبةٍ باستغرابٍ شديدٍ منهم تجاه حالتي... ولا أحدَ منهم يعلم ما حدث لي على متن تلك الطائرة... طائرة الثالثة والربع فجرًا. كنتُ

أنتظر الجلسة القادمة بفارغ الصبر، وموعدها هذا الصباح أخيرًا... وعقلي قرر التوقف عن التفكير والاستسلام للأقدار. فتحتُ باب سيارتي ومشيتُ نحو المحكمة مسرعًا مثبتًا شماغي بيدي، دخلتُ المحكمة قبل موعد الجلسة بدقائق... وتخطيتُ أروقتها لأرى (شوق) واقفةً على الباب. بمجرد رؤيتها لي قطّبت حاجبيها، وقدمت لي نظراتها المشمئزة التي اختلطت بالقلق هذه المرة... لتقول حين وقفتُ أمامها:

«بين كل أوقات الحياة قررت الاختفاء وعدم الرد هذا الوقت! ما الخطب مع عقلك؟»

أجبتُها ببرود دون التوقف عندها، داخلًا الدائرة:

«سنتأخر عن الجلسة، لا مشكلة معي لكني قررتُ الانتظار حتى يتضح كل شيء... لا فائدة من حديثنا فما يدريني أنك تقولين الصدق»

كنت حاد اللهجة معها ومع الجميع، اكتفيتُ من التلاعب بي وبعقلي... لن أثق بأحد سوى نفسي وحتى نفسي قد لا أثق بها. جلستُ وحدي تلك المرة على الرغم من رؤيتي لذات العينين الوسيعتين، تجلس في المقعد وحيدةً تنتظرني... وكم قسا عليها قلبي آنذاك حين أجلسني في مقعدٍ بالخلف بعيدًا عنها. التفتتْ ونظرت لي بعينين انكسرتا حين رأتا ما فعلت، فلم يكن من خيبة أملهما سوى العودة للنظر للأمام... تجاه كرسي القاضي الذي ينتظره.

عادت (شوق) للجلوس في مقعد المتهم بجوار (مجد)، هذه المرة دون سجّانةٍ ترافقها فقد أُفرِجَ عنها مع بقاء التهم الموجهة لها... وليست بريئةً في نظر القضاء بعد. التفتتْ لي محامية القضية (مجد) ينقابها، تورطت بوجودها معنا في تلك الرحلة، كما هو الحال مع كل ركاب تلك الطائرة.

لحظات ودخل القاضي وسارت الجلسة بلا جديد يذكر، لا شيء مهم بعد شهادة (أريج) في الجلسة الماضية... ويبدو أن تلك القضية ستغلق ضد مجهول بعد كل ذلك الجهد... ليتها تغلق ضد مجهول ولا تغلق ضدنا.

انتهت الجلسةُ بكل يأس وبؤس، ورحل القاضي مع تحديد موعد جلسةٍ أخرى فلا يستطيع الحكم بما لديه من أدلة... ووقفتُ للمغادرة لتقع عيني عليها وينكسر قلبي... لا أريد معاملتها بهذه القسوة يا قلبي... تبًّا لك! انتظرتها وهي تمشي لي بملامحها العربية الأصيلة، تلك الملامح التي وقعتُ بغرامها أيما غرام... قالت بعد أن سحبت نفسًا عميقًا وأطلقته:

«كيف حالك؟»

وكأن كلام الدنيا كله تلخّص بالنسبة لها في ذلك السؤال، كل ما

حملت من مشاعر وأسئلة وأفكار... خرجت مع العبارة المسبوقة بتلك التنهيدة. أجبتُها وكأننا غرباء:

«الحمدلله، ماذا عنك؟»

أومأت برأسها وهي تنطق مختنقةً قبل أن تغادر:

«بخير»

كرهتُ نفسي على تلك المعاملة القاسية، لكني لم أتحكم بأفعالي وقتها والله... غادرت وغادر قلبي معها المحكمة... من كنتُ أخادع فقلبي معها دائمًا ولم يعد ملكي منذ زمنٍ بعيد.

«(عاطف) هذا غريبٌ جدًّا! كان معي بالطابق العلوي وجلس يتحدث معي، غير مريح للغاية. حتى أنه انتفض فجأة حين نظر من النافذة وأصدر صوتًا غريبًا»

قالت (شوق) لي بدون مقدمات، وهي تشير لأخي الضحية الذي كان يغادر الدائرة... وقد وقفت بجوارها المحامية التي أنزلت كل طاقتها وجهودها في تلك المرافعة.

وما أن وقعت عبارتها تلك على مسامعي حتى شهقت بعنف! الآن تذكرتُ لمَ كان ذلك الصوت الغريب مألوفًا لي عند سماعه، اللعنة! ذلك الصوت وتلك الانتفاضة رأيتها من الراكب أمامي في الطائرة،

أمعقولٌ أن (عاطف) كان أحد ركاب الطائرة أيضًا؟! الفكرة مريبةٌ جدًّا ومرعبة، هرعتُ لأتحدث مع (أبي تركي) سريعًا فاحتمالية وجود (عاطف) في تلك الرحلة مريبة... ما الذي كان يفعله ولِمَ لم يعلم بوجوده أحد؟

قد تكون مجرد مصادفة لكن عقلي قادني لفكرة وجوده في الطائرة، نفس الانتفاضة والصوت الغريب بالضبط... ولم يكُن أي صوت! لن أدع مجالًا لعقلي حتى يتغذى علي، وسأقول الفكرة لـ (أبي تركي) و(أديم) أيضًا... كل تفصيلٍ مهما كان صغيرًا تافهًا قد يقود للحقيقة!

لحقتُ (أبا تركي) الذي كان مستعجلًا في المغادرة، متحدّثًا مع المحقق (أديم) فقد كانا صديقين وزميلين في المهنة... وقفتُ أمامهما وهما ينتظران سبب هرولتي واستعجالي.

«هلّا جلسنا قليلًا؟»

قلتُ ناظرًا لـ (أبي تركي)، فلم يكن من الأخير سوى النظر لـ (أديم) وهو يومئ له بالمغادرة... فبادرتُ بالحديث:

«لا مانع من وجود (أديم)، أريده معنا أصلًا»

أشار لي (أبو تركي) بيده لأمشي معه وعيني لا تغادر وجهه رتيب اللحية والشارب، وجهه النضر الذي ناقض وجه محققنا الآخر

البائس... عذرًا (أديم). جلسنا كلنا وزفرتُ بعنف، والمحققان ينتظران نطقي أيما انتظار... وكأن حيواتهما تعتمد عليه.

«أريدك أن تسمع نظريتي بكل تقبّل ولا تلفظها لمجرد كونها غير منطقية»

قال بنفاد صبر و(أديم) يوافقه في حديثه:

«أرجوك انطق يا (عثمان) فقد حرقت أعصابنا»

بدأتُ حديثي سريعًا:

«أعتقد أن (عاطف) كان معنا في الطائرة، فقد سمعتُ صوتًا غريبًا منه لم أسمعه سوى من راكبٍ ملثّمٍ غريب على متن الطائرة... وأكبر دليلٍ على كلامي هو سماع (شوق) للصوت الغريب نفسه من (عاطف). صوتٌ غريبٌ مرتعد، مسبوقٌ بانتفاضة جسد مرعبة خوفًا من المرتفعات. قام بها الراكب في إقلاع الطائرة وقام بها (عاطف) مرتين عند النظر من نافذة الطابق الرابع، أعتقد أنه يخفي سرًّا كبيرًا فلم أرَ هذا الشخص الملثم حين احتجزتمونا وقت مغادرة الطائرة... فأين ذهب حتى لو لم يكن (عاطف)؟»

نزل حديثي كالصاعقة على مسامعهم، ونطق (أديم) وهو يتلاعب بشعر لحيته الكثيفة:

«احتمالك بعيدٌ جدًّا في الربط بين (عاطف) وذلك الملثّم، لكن نظرية أنك لم ترَ الملثّم في مبنى الاحتجاز أمرٌ مريب... رغم أنه من الممكن أنك لم تركز جيّدًا في الركاب»

رد عليه (أبو تركي) وهو يعقد ذراعيه ويتنهد بعمق:

«لكن عدد الركاب محدودٌ جدًّا، فمن الصعب أن يفوت (عثمان) أو أي شخص هذا الملثّم... وأنا شخصيًّا اطّلعتُ على قائمة المسافرين لكنني قد أكون فوتُّ اسم (عاطف) من بينهم... ولم أكترث لتلك القائمة فالكثير من الركاب قد فوتوا الرحلة ولم يلحقوها. لن أخسر شيئًا بالاطلاع مجدّدًا على القائمة، تفاصيل مهمة (عثمان)... شكرًا لك»

وقفَ مباشرةً وودعنا سريعًا للبحث والتقصي، وأنا أدعو الله ألا يخيب أملي... مع الخوف من اليأس بعد عودة الأمل في حل هذا اللغز اللعين.

استدعاء

تمنيتُ لو كنتُ محققًا أو استطعتُ الاطلاع على مستجدات القضية، كأحد الموظفين في الأرشفة والمستندات... الجهل بما حولي قتلني في الأيام التالية لتلك الجلسة وذلك التحليل. حتى المحقق (أديم) لا يستطيع الإفصاح عما يدور في القضية لسرية الأمر، والحمدلله أن تم استدعائي من (أبي تركي)... من المفترض أن ذلك الاستدعاء يخيفني لكن تأثيره أصبح معدومًا في قلبي بعد كل ما مر به.

تخطيتُ شوارع المدينة الكبيرة المزدحمة، محاولًا الوصول بأسرع وقت لمبنى الشرطة... وسكان تلك المدينة الساحلية يعلمون كيف هو الحال حين تغضب ويشتد ازدحامها. وصلتُ أخيرًا في ذلك الوقت الحار من اليوم، وقد غطستُ بعرق جسدي رغم التكييف الذي بذل أقصى ما بوسعه للتبريد. غادرتُ السيارة ودخلتُ المبنى سريعًا لألقى (أبا تركي) ينتظرني عند الباب، الكثير من رجال الشرطة الداخلين والخارجين... وكلٌ انشغل بمهمته الموكلة له.

«أشكر قوة ذاكرتك أيها الكاتب!»

قال وهو يصافحني ويدعوني للداخل لمكتبه، فرحتُ بمقولته

تلك أيها فرح فقد قالها بالبشرى... لأمشي معه لمكتبه الكبير ويشير لي بالجلوس على المقعد المقابل. استضافني وهو يسأل:

«ماذا تحب أن تشرب؟»

أجبتُهُ بعجل:

«أي شيء، المهم أن تخبرني أرجوك بما حصل! أكان هو قاتل أخيه؟»

ضحكَ المحقق ولم يكُن ذلك مستغربًا فقد كان له وجهٌ بشوشٌ نضر، ليقول وهو يرفع يديه:

«على رسلك على رسلك، أوَّلًا سأخبرك بسبب الاستدعاء... نريدك أن تؤكد لنا أن صوت الصرخة هو نفسه الذي سمعته بالطائرة وأن توقع على ذلك»

أومأتُ برأسي ومدّ لي سماعات حاسبه المحمول، وقبل لبسها قال لي:

«ركّز جيّدًا وأصغِ لصوت الصرخة، فستشهد بحديثك هذا أمام القضاء... لو كانت الصرخة مغايرةً ولو قليلًا فعليك أن تخبرني... اتفقنا؟»

وضعتُ سماعات الرأس وقام بتشغيل التسجيل للمرة الأولى، ليسألني:

«أهذا هو صوت الصرخة الذي سمعته من الراكب أمامك بالطائرة؟»

أجبتُ بثقة فقد كانت مطابقةً بالضبط:

«نعم»

شغله للمرة الثانية وسألني السؤال ذاته، لأقوم بتأكيد تطابقه مع صرخة الراكب للمرة الثانية... وحينذاك استعاد السماعة مني ومد لي الورقة لأقوم بالتوقيع على أقوالي.

اعتدل في جلسته وهو يحك خده وينظر لي بوجهه المستدير بصمت، وأنا أحترق شوقًا لمعرفة ما حصل. قال بعد أن فكّر مليًّا:

«أحب أن أقول لك بصدق حدسك، بالفعل كان (عاطف) على متن تلك الطائرة وقد اعترف بكل شيء... وكيف استطاع الهروب من الاحتجاز الأمني ذلك اليوم. لكن تبقى شيءٌ واحد لم يعترف به»

نظر لي مطوّلًا وكأنه يتمحص ردة فعلي وحماسي، ليختم حديثه بجملةٍ لم أرد سماعها أبدًا:

«لكنه أبى الاعتراف بقتل أخيه، لا يزال القاتل مجهولًا في هذه القضية»

قبل أربعة أشهر...

شيطان

«ألا تريد أن يحترمك الجميع؟ ألا تريد أن يقيموا لك وزنًا قبل الحديث معك؟»

صرخَ (عاطف) بامتعاض في وجه رجلٍ يشابهه قليلًا، من يراهما يعتقد أنهما أخوان.

تساءل (مناور) وفي صوته قليل رجفة:

«ماذا لو أبلغوا الشرطة عن محاولة الابتزاز والتجسس، ولم يكترث أحدهم بانتشار فضائحه وخسارة وظيفته؟»

سحبَ (عاطف) نفسًا عميقًا وهو يغمض عينيه، مجتهدًا في التحكم بأعصابه حتى لا يضرب أخاه الصغير والأوحد. قال وهو يضع يده على كتف شقيقه:

«حبيبي يا (مناور)، ألم توافق مسبقًا على ما نحن على وشك فعله؟ ألم تكتفِ من الإهانات والاحتقار المستمر من زملاء عملك؟ ألا تريد أن تجني أضعاف المال الذي تجنيه من وظيفتك؟»

أومأ (مناور) على مضض وجبينه الأبيض يتصبب عرقًا، قبل أن يضرب (عاطف) كتفه بلطف وهو يشجعه:

«قم الآن وتجهز لرحلتك الأولى التي ستغدو بعدها ملكًا على الجميع، وتستطيع التحكم بالكل بأناملك فقط»

كالشيطان الوسواس الممثل للضمير السيئ، كالقرين الذي سيودي بصاحبه للهلاك مزيّنًا له أشنع الفعائل... حتى إذا ما وقع في عواقب أفعاله تخلى عنه. نجحَ في إقناع أخيه دون أن يعلم أن تلك بداية نهايته، وكما جرى الحال دومًا فقد رآه أخوه صاحب الرأي السديد... والعقل المدبر لكامل حياته.

قبل طائرة ٣:١٥ فجرًا

بيوم...

شر متفاقم

جلسَ (مناور) على الأريكة أمام التلفاز وعيناه مركّزتان على ما يعرض فيه، لكن عقله أبحرَ بعيدًا جدًّا... لو سأله أحدٌ عما يشاهد فلن يستطيع الإجابة حتى. كان يجلس بسرواله الداخلي ورغم برودة ساقيه وفخذيه، إلا أنه لم يشعر أبدًا أو لم يهتم بالأصح... عقله كان يعمل بكل ما أوتي من قوة.

رنّ أحدهم جرس شقته، لم يهتم بارتداء شيء فقد كان يعرف الطارق القادم. فتح الباب ليرى شريكه في جرائمه، قرينه الذي لم يهدأ شره أبدًا... بل ازداد وتفاقم وطغى على خيره. دخل أخوه (عاطف) الذي عقد ذراعيه مباشرةً من برودة غرفة المعيشة، وبدأ بتحريك يديه على ذراعيه لتدفئتهما وهو يقول:

«أطفئ التكييف أيها المجنون، يكاد الثلج يتساقط من البرد»

قام (مناور) بإطفاء التكييف وعقله اللاواعي يقوده، ليقول بعد صمتٍ استمرّ للحظاتٍ بعد أن جلس مع أخيه:

«أريدك أن تكون معي على متن هذه الرحلة»

قطب (عاطف) حاجبيه واعتدل في جلسته، ليسأل أخاه عن طلبه الغريب:

«لماذا؟»

هز (مناور) رأسه وتنهد بعمق والكثير من المشاعر قد غادرت جسده مع تلك التنهيدة، ليقول:

«سأبدأ الجزء التالي من الخطة في هذه الرحلة، وعندي شعورٌ سيئ للغاية لا يبشر بخير... أشعر أن شيئًا سيئًا سيحدث في هذه الرحلة ولا أعلم لماذا! أريدك أن تكون معي فوجودك سيريحني كثيرًا وأحتاجك إن اتجهت الأمور اتجاهًا لا تحمد عقباه»

مدّ (عاطف) يده على ركبة شقيقه وقال له مومئًا:

«لا تقلق يا أخي، سأكون أول الركاب في تلك الرحلة وتذكر دائمًا أنّا في هذا الأمر معًا... كما بدأناه معًا سننهيه معًا»

ابتسمَ في وجه شقيقه الأصغر ولو اطلع على الأقدار لأجبره أن ينفذ بجلده منها، لكن قدره وقدر كل الجميع أن يكونوا على متن تلك الرحلة المشؤومة.

«هل نجحتَ في إقناع خطيبة ذلك الكاتب؟»

سأل (عاطف) وهو ينظر للتلفاز كأخيه بالضبط، دون أن يعلم ما هية الشيء الذي يعرض عليه.

أطلق (مناور) ضحكةً تهكمية وهو يجيب:

«عيبٌ عليك، ثِق بمهارات أخيك! الكاتب (عثمان)، وصديقته (شوق)، والطاقم كله موجود على متن تلك الطائرة»

صافحه (عاطف) بوجهٍ ارتسمت عليه ابتسامة فخر وقال:

«لم أشك بمهاراتك أبدًا، الآن علي أن أسافر لأكون على متن الطائرة العائدة... أليس كذلك؟»

«نعم فالكل سيكونون على متن تلك الطائرة العائدة، طائرة الثالثة والربع فجرًا»

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

طائرة ٣:١٥ فجرًا

3:15 AM

فعل الطاقم فعلته المشينة بـ(مناور) وأحكموا الإمساك على فضيحته ووثقوها، ليبدل ملابسه ويمكث كأحد الركاب في مقاعدهم... بانتظار صعود الجميع في تلك الرحلة وقد انقلبت خطته رأسًا على عقب. كان يرغب بابتزازهم بالمال أخيرًا لكن اليد العليا أصبحت لهم، فلم يحافظ على احترامهم له ولا حتى احترام نفسه!

لحظاتٌ وبدأ الركاب بالصعود واحدًا تلو الآخر، وهو يترقب قدوم أخيه الذي كان مصدر الأمان له دائمًا... ليبكي كالأطفال وينتظر أن يقدم له العون وينتقم من طاولة العار... (روان)، (فراس)، (رويد)، (ماري)، والطيار (نيكولاس)، ومساعده (عصام).

أخيرًا ظهر (عاطف) ووقعت عينه على أخيه، ليقطب حاجبيه ويهرع ليجلس في مقعده... كان من المفترض أن يكون أخوه هو المضيف في تلك الرحلة فكيف أصبح الآن مجرد راكبٍ عادي؟ ما أن جلس أخوه بجواره حتى انفجر بالحديث عن كل ما حصل معه، محاولًا خفض صوته قدر المستطاع... مع حبس دموعه التي كانت على وشك الفيضان.

«علينا أن نتوقف عما كنا نفعله والآن! لا أريد أن تخرج تلك الصور لأحد!»

قال (مناور) وهو ينظر لأخيه بعينين مترجيتين، سالت دموعهما أيما سيلان... دموع محترقة مرغمة على الخروج من محاجر عينيه.

ثارَ (عاطف) غضبًا وأمسك بيدي أخيه وشد عليهما، ثم قال بصرامة:

«لن نسكت لتهديدهم ونرضى بابتزازهم لك بتلك الطريقة! لن نذعن لهم وسنفكر بطريقةٍ للانتقام منهم لتكون لنا اليد العليا، و...»

قاطعه (مناور):

«هلّا صمتّ للحظة؟!»

انتبهَ لعلو صوته والركاب لا يزالون يصعدون إلى الطائرة وفي طريقهم لمقاعدهم، فخفضَ صوته وأكمل وهو يشد فكيه:

«كل ما يهمك هو مصلحة نفسك في هذا الأمر! كل ما تريده هو المال! ألا يهمك ما فعلوه بأخيك بأشنع طريقةٍ ممكنة؟!»

وقفَ من مقعده وغادرَ أخاه وهو يقول له:

«سأجلس في مقعدٍ آخر بعيدًا عنك، وحين تهبط هذه الطائرة

سيكون لي معك شأن آخر... سيتوقف مشروع الابتزاز الرخيص هذا!»

اختفى عن بصر (عاطف) وغير مقعده لمقعد آخر بعيد، والأخير أبى لحاقه وجلس في مقعده منتظرًا بقية الركاب ليستقلوا مقاعدهم حتى تقلع الطائرة... دون اكتراثٍ منه بملاحقة أخيه ومحاولة إرضائه.

الوقت الحالي...

دافع

«متيقنٌ أن يده ملطخة بدماء أخيه، لا سيما حين رأى تراجع أخيه وكل ما يهمه هو المال الذي سيجنيه جراء ابتزازهم! كيف استطاع الهرب من مبنى الاحتجاز؟»

قلتُ للمحقق الذي كان يفكر بعمق، عرفنا كل شيء عن كل شيء... سوى هوية القاتل المجهولة.

أجاب (أبو تركي) وهو يسند خده على يده:

«اتفق مع أحد معارفه السابقين والذي كان تابعًا لأمن بالمطار، ولا أعلم كيف تم الأمر بتلك السهولة وغفلنا عنه... وسبق وألقينا القبض على الشرطي الفاسد وجارٍ التحقيق معه. كيف استطاع تهريبه بتلك السهولة من مبنى الاحتجاز، ولِمَ يهرب من مبنى الاحتجاز أصلًا إن لم يرتكب الجريمة؟»

قلتُ له وأنا أشك في صحة كلامي:

«قد يكون خشي اتهامه بارتكاب جريمة الابتزاز فهرب؟ اترك هذا الأمر الآن، كيف استطاع (رويد) إدخال السكين رغم التفتيش المشدد قبل الصعود؟»

رفع المحقق كتفيه ومرّت لحظات صمتٍ مقلقة، ما هذا التعقيد والأحداث الكثيرة التي اختبأت في تلك الرحلة؟ ليت جدران المقصورة تنطق لتخبرنا بما حصل في كنفها، فقد طال الأمر عليّ وأقلق مضاجعي.

اعتدل (أبو تركي) في جلسته وقال بتفكيرٍ مفرط:

«وفوق كل ذلك، (عاطف) لا يمتلك دافعًا حقيقيًّا لقتل (مناور) ناهيك عن أنه أخوه... أما (رويد) ومجموعته فلديهم الدافع»

أجبتُهُ وقدمي تهتز بعنف من التوتر:

«لعله أراد الاستمرار في الابتزاز وحين رفض أخوه قرر قتله...»

راجعتُ فكرتي التي تفتقر للعقلانية ثم قلتُ سريعًا:

«انسَ انسَ، لقد راجعتُ سخافة الدافع في عقلي للتو»

كدنا نعود للصمت قبل أن أطرح سؤالًا خطر ببالي وقتها:

«هل وجدتَ اسمه على لائحة الركاب؟»

لمعت عينا المحقق الذي تقدم بظهره للأمام، وكأن سؤالي ذاك أعاد الحياة لجسده بالكامل... لينطق بغموض:

«صدق أو لا تصدق، لم يكن اسمه على لائحة الركاب لكن الخبيث استطاع اختراق موقع شركة الطيران وإزالة اسمه... بمجرد هروبه من مبنى الاحتجاز!»

أطلقتُ ضحكةً تهكمية استغربَ منها المحقق وحتى أنا استغربتُ منها، لأقول:

«لقد افتعل هو وأخوه الهوائل، صدق من قال إن الدهاء سلاحٌ ذو حدين... إلى أين كانا سيصلان بابتزازاتهما تلك؟ حجم التفكير والتخطيط والخبرة التي وضعاها غير طبيعي!»

سكتَ كلانا ونحن أمام السؤال الأهم، من القاتل؟

من القاتل؟

تأملتُ رسائلها المسبوقة باتصالها اليومي الذي تكرر، رسائلها التي أصبحتُ أتجاهلها بالساعات ثم أرد عليها بكل برود... وقلبي يحاسبني على كل فعلٍ وقولٍ أوجهه لها. ما عساي أن أفعل؟ قد عاهدتني عيناها الواسعتان فائقتا اللطف والحنان أن تخبرني بكل ما ترى، أن تقول لي كل ما تراه وتسألني عن كل معلومةٍ قد تصلها عني... وعينايَ عاهدتاها بالمثل. كيف سمحت لها نفسها أن تقوم بكل ذلك من ورائي، قلبي متيقنٌ أن تلك الفتاة التي سمعت حديث (مناور) عني وأقنعتني بالعودة مبكرًا... لم تكن (أريج) أبدًا.

اشتقتُ لها كثيرًا، وما أسوأ الاشتياق الممزوج بالغضب... قلبي غاضبٌ من فعلتها ويحمل الكثير من العتب المتراكم إلا أنه... إلا أنه حين يراها لن يرغب إلا باحتضانها بشدة! اشتقتُ لحضنها الدفئ ولمسات يدها الناعمة، الليالي طويلةٌ للغاية بدونها... والأيام صعيبةٌ لا تكاد تنقضي إلا بشق الأنفس.

«أيها الغبي، أما زلتَ تعاملها بالبرود ذاته؟»

سألتني المحامية، وهي تحتسي قهوتها أمامي بعينيها المختبئتين خلف النقاب.

أومأتُ بصمت وأنا أتأمل رسالتها القابعة على شاشة هاتفي، وقلبي ينغزني على معاملتي لها... فهي بين جميع البشر تستحق أن يُغفر لها جميع أخطائها... ما بالك يا قلبي تأبى أن تغفر لتينك العينين الواسعتين خطأهما؟

«انتبه أن تطيل هذه المعاملة، أنا أنصحك»

قالت (شوق) وهي تنفخ دخان سيجارتها، فقد شاركتنا جلسة القهوة البائسة تلك... علّنا نخرج بحجة دفاع تبعد الشبهات عنّا أكثر... ففي نهاية المطاف كلانا أنا و(شوق) في دائرة الاتهام.

أرسلت (مجد) نظراتها المليئة بالأحكام تجاه (شوق)، ومن لم يرسل لها تلك النظرات يومًا؟ ثم قالت بامتعاض:

«لا أعلم لِمَ لم نجلس بمكتبي! هذا المكان يبعث على الاكتئاب»

أكملَ الجميع الجلوس بصمت وقد غرق الكل في أفكاره، سؤال واحدٌ يجول بخاطرنا كل تلك الساعات... من القاتل؟ (شوق) تدخن السيجارة تلو السيجارة، (مجد) تحرك عينيها خلال دفترها المليء بالحقائق عن القضية، وعيني استمرّت تتأمل الهاتف كل دقيقة... مع كل رسالةٍ تصلني من الفتاة التي أحب ويدق قلبي بعنف لتلك الرسالة.

«أخبراني مجدّدًا، كيف كانت شخصية (مناور) في العمل؟»

سألت (مجد) رافعةً عينيها تجاهي، وكأنها لا تريد إعطاء (شوق) أي اهتمام.

بدا عدم رغبة (شوق) بالتحدث فابتدأتُ قائلًا:

«(مناور) كان مهزوز الشخصية، يبحث عن الاهتمام والتقدير بشتى الطرق ولا يجدهما، غير واثقٍ بنفسه أو بعمله أبدًا، ولم يكن يجيد اللغة الإنجليزية حتى وقد اجتاز المقابلات الوظيفية عن طريق الوساطة»

أكملت (شوق) على حديثي لتؤكده، وهي تفرك عينيها الناعستين:

«لطالما قلتُ له إنه يفتقر لتقدير الذات»

صمتُّ لحظاتٍ وأنا أنظر للجدار ثم قلتُ:

«حين ترين وجهه تشعرين أنه على وشك الإقدام على فعلٍ واحدٍ فقط...»

انطبقَ لساني وأنا أقول حديثي، فقد أتتني فكرةٌ مرعبة سيتغير معها كل شيء... فتحتُ عينيّ على مصاريعهما وصرخت:

«اللعنة!»

وكأن الوحي تنزّل عليّ فجأةٍ من عبارتي التي كنتُ سأقولها لكنني لم أكملها، ماذا لو كان هذا ما حدث فعلًا على متن الطائرة؟!

«ماذا؟ ما الذي حدث لعن الله عدوك؟ لقد أفزعتنا»

امتعضتْ (شوق) بحاجبيها المقطبين، لتتراجع عن إشعال سيجارتها التالية وتضعها جانبًا... منتظرةً لساني لينطق ويريح الجميع. سألتُ المحامية وعينايَ قد غمرهما هرمون (الأدرنالين)(*):

«(مجد)، أنتِ عبقرية! كيف فكرت بذلك؟»

الجهل بما حولها أخرجها عن طورها، فقالت (مجد) بعصبية:

«(عثمان)، هلّا تحدثت بعيدًا عن الألغاز أرجوك؟!»

اعتدلتُ في جلستي وتحدثتُ حتى لا تضربني إحداهما أو كلتاهما:

«حين سألتِ عن شخصية (مناور)، وأجبتُك ثم أكملت بعبارتي كنت سأقول: "حين ترين وجهه تشعرين أنه على وشك القيام بفعلٍ واحد فقط، الانتحار!" وإليكم الفكرة، لقد أمضينا الكثير من الوقت نحاول البحث عن القاتل... ماذا لو لم يكُن هناك قاتلٌ أصلًا؟»

---

* الأدرينالين ويسمى أيضاً الإبينيفرين: هو هرمون وناقل عصبي تفرزه غدة الكظر وهي تقع فوق الكلية. يعمل على زيادة نبض القلب وانقباض الأوعية الدموية وبالمجمل يؤدي إلى تحضير الجسم للقيام بأعمال ينتج عنها إجهاد وانفعال مثل الرياضة والعراك والهرب وحالات الفر والكر.

بحلول تلك اللحظة شُدّت أعصاب الجميع حتى كادت تتقطع، حاولتا حبس أنفاسهما وخفض دقات قلوبهما حتى تعيراني التركيز المطلق... ولم أكُن أعلم إن كان ما أقوله مجرد هرطقة أو كلام منطقي لكني أكملت:

«ماذا لو كان القاتل والضحية هو (مناور) نفسه؟ ماذا لو أن الجريمة كانت انتحارًا وليست جريمة قتل؟ ماذا لو أن (مناور) قد انتحر بالفعل ونحن نبحث عن القاتل كالبلهاء؟!»

سكتتا قليلًا ثم قالت (شوق):

«وكانت الضربة القاضية لميوله الانتحارية وقلة تقديره لذاته حين صوروه بتلك الفضيحة رغمًا عنه، وهددوه وابتزوه بها بعد أن كانت له اليد العليا... فما الذي سيدفعه للانتحار أكثر من هذا السبب؟ لا سيما بشخصيته الكئيبة تلك»

(مجد) كان لديها تساؤل لم تتردد بطرحه:

«لكن كيف تم تهديدك يا (شوق) من قبل القاتل، وتهديد طاقم المقصورة، وحتى أنت يا (عثمان)؟»

«لا أملك إجابةً لهذا السؤال الآن لكن الفكرة مرعبة، وقد تكون حقيقية طالما أنهم لم يجدوا آثار بصماتٍ للقاتل على تلك السكين»

كانت قدمي تهتز بعنف وقد شددتُ على فكي وقبضتي مع كامل أعصاب جسدي، عالج عقلي كل تلك الأفكار بسرعةٍ فائقة... باثًا (الأدرنالين) لكل أطرافي.

«عليك أن تتصل بالمحقق (أبي تركي) الآن سريعًا، الجلسة الأخيرة غدًا في المحكمة!»

أخبرتني (مجد) وهي تناولني هاتفي الذي تكدّس بالرسائل المهملة، وسرعان ما اتصلتُ بالمحقق ورنّات المكالمة تزيد من توتري... كل رنّةٍ ترن بقلبي قبل الهاتف.

«سيادة المحقق، لدي أمورٌ مهمة عليّ أن أخبرك بها الآن وفورًا»

لم أُلقِ السلام عليه حتى، وأخرجتُ ما بجعبتي له... فما كان منه إلا أن قال:

«ابقَ مكانك وسآتيك الآن، أين أنت بالضبط؟»

أخبرته بموقعي وأغلق الخط مباشرةً، الكل يعلمون أن الأمور على المحك... وأصابع الاتهام الكبرى تشير لـ (عاطف) الذي قد يكون بريئًا من قتل أخيه بعد كل شيء. جلسة القضاء الأخيرة غدًا بعد أن طالت وأخذتنا بعيدًا عن حيواتنا، حتى نسينا كيف كانت حيواتنا سابقًا... قبل رحلة ٣:١٥ فجرًا.

***

«ليس لدى (مناور) أي سجلات زيارات لعيادات نفسية للأسف، لكن هذا لا يلغي فكرة أنه انتحر بالفعل. وقد يفسر هذا وجود الدماء على ملابسه هو فقط ولم نجد بقعة دم واحدة على أيٍّ من ملابس الركاب»

قال (أبو تركي) وهو يجلس في غرفة الاستجواب، وجلستُ أمامه وبجواري (شوق).

ظهر الإحباط على وجهي، وكأن قلبي تمنى أن يكون مات منتحرًا... ولا أدري أن تُسلَب روح الإنسان من قبل غيره أسوأ أو أن يَسلب هو روحه بيده!

«تبقى حلٌّ واحد فقط، قد يكون تحدث مع العيادات النفسية الإلكترونية على هاتفه... وسيجلبونه لي بعد قليل لأتحقق»

فكرةٌ ذكية من المحقق، كيف لم أفكر بها؟ ارتجف قلبي لفكرة وصول أحدهم للانتحار أيًّا كان السبب، أنا أتراجع عن كلامي... أن يموت الإنسان مقتولًا خير له من الانتحار... فالانتحار يثبت حجم كره الإنسان لحياته وذاته.

دخل أحد العساكر وهممنا بالمغادرة لكن (أبا تركي) اعترض:

«قد أحتاجكم للإجابة عن بعض الأسئلة التي تخص (مناور)»

بدأ بالمرور خلال هاتفه وسرعان ما اعتدل في جلسته وهو يدقق النظر بالهاتف، واعتدلنا معه في جلستنا رغم عدم علمنا بما رأى.

«ها قد وجدنا ضالتنا، يمتلك أحد تطبيقات التحدث مع الأخصائيين النفسيين»

نطق وعيناه تلمعان ليزيد من توتري، أرجوك يا رب فلينتهِ هذا الكابوس بأسرع وقت.

«ولديه ما يبلغ عدده ٢٣ جلسة مع الأخصائي نفسه، نحن أمام كنز من المعلومات من هذا الطبيب»

قال وهو ينظر للتطبيق وينقر بأصابعه على هاتف مركز الشرطة، ليضع الهاتف جانبًا وينتظر إجابة العيادة في ذلك الوقت المبكر من المساء.

«وعليكم السلام، معك المحقق (أبو تركي) من قسم (...) ... هل لي بالتحدث مع الطبيب (همام بن...)؟»

أشار بيده للعسكري وقال بهمس:

«انتظراني بالخارج وسأدعوكما»

رافقنا العسكري للخارج وقلبي يحترق لسماع ما سيقوله الطبيب، مشينا لمنطقة الانتظار وجلست (شوق) إلا أنني لم أستطع الجلوس...

فرحتُ أمشي ذهابًا وإيابًا وعقلي يحاول تحليل كل ما حدث. ماذا لو كان منتحرًا بالفعل، فما الدليل القاطع على انتحاره؟ لن يقوم من قبره ويخبرنا بانتحاره! من الذي قام بتهديدنا جميعًا لو مات منتحرًا؟ لحظاتٌ مرت ونحن في قاع الجحيم، ما الذي يقوله هذا الطبيب ليأخذ كل هذا الوقت بحق الله؟

أخيرًا خرج المحقق من غرفة الاستجواب ليشير لنا، ولم أحتج تلك الإشارة فقد ثبتُّ عيني على الغرفة طوال الوقت... وكان الحال نفسه مع (شوق). الاثنان اللذان عانيا من عذاب التوقيف والاتهام، بالطبع سيكونان مهتمّين للغاية بتلك المكالمة التي قد تثبت براءتهما وبراءة الجميع. هرعنا للغرفة وجلسنا، وكلنا شوقٌ لسماع ما سيقوله المحقق... جلس بهدوء وعقد ساقيه وقال:

«أنت ذكي أيها الكاتب، أتساءل ما إذا كنت محقّقًا في حياة سابقة»

اصطنعتُ ابتسامتي وأنا أجامله على الإطراء، لكن حديثه ذلك لم يكن مهمًّا أبدًا... فقد أردتُ أن أسمع كلامًا مختلفًا.

«سيادة المحقق قد احترقت أعصابنا والجلسة غدًا في الصباح، انطق أرجوك»

قالت (شوق)، كعادتها فقد كانت الأقل صبرًا بين ملاحي المقصورة كلهم... ولن تكون صبورًا في موقفٍ كهذا.

نطق المحقق بابتسامة:

«تحدثتُ مع الطبيب النفسي الذي أرشده في جلساته، وأتاني التشخيص الكامل. كان (مناور) مصابًا باكتئابٍ حاد ولديه ميول انتحارية شديدة، ونصحه كثيرًا بمراجعة عيادة على أرض الواقع ليتم علاجه... لا أن يستمر في الاستشارات النفسية فقط... لكنه لم يفعل ذلك أبدًا وكل ما أراده أن يتحدث مع شخص لن يحكم عليه»

لم يكُن أحدنا ليفرح بتلك المعلومات، فنحن نتحدث عن مرض الضحية النفسي الشديد الذي قد يكون أدى لوفاته... لكن فرحي كان لشعوري أن نهاية هذا الكابوس قد اقتربت أخيرًا.

«لكننا نحتاج دليلًا قاطعًا على انتحاره ومجرد التحليل النفسي من الطبيب (همام) لن يكفي أمام القاضي، وحتى شهادتكم على حالته المكتئبة منذ عرفتموه لن تكفي أيضًا. ولابد من وجود شخصٍ كان يعلم بانتحاره وأراد جعلها كجريمة قتل، وهو الذي قام بتهديد الجميع... وقد كونت فكرةً لا أعلم صحتها من عدمها لكني سأسعى فيها... تستطيعون المغادرة ودعوا الباقي علي أنا»

الجلسة الأخيرة

الجهل بما يحصل أو سيحصل، كم أكره هذا الشعور وأمقته! منذ تركنا المحقق لم أعلم أي شيء يحصل، تمنيتُ لو كنتُ رجل أمن وقتها لأتمكن من الاطلاع على كل ما يجد... ولِمَ أرفع سقف توقعاتي؟ قد يكون كل ما توصلنا له مجرد توقعات لم نرسُ على دليلٍ عليها، قد تكون بالفعل جريمة قتل وأحدنا هو القاتل! أهي (شوق) التي اعترفت تحت الإكراه؟ أم (عاطف) الذي شارك أخاه جرم الابتزاز وشجعه عليه؟ ربما (رويد) أو (ماري) أو (روان) أو (فارس) أو الطيار أو مساعده، أو كلهم مشتركون! أمعقولٌ أن تكون المحامية (مجد)، التي اعتمدتُ عليها وأخبرتها بكل شيء؟

تلاعبت تلك الأفكار برأسي منذ غادرتُ المنزل وحتى توقفت سيارتي أمام المحكمة، فتحتُ الباب وتأملتُ المحكمة للحظات... أطلقتُ تنهيدةً عميقةً وغادرتُ سيارتي وأنا أتمنى أن تكون آخر مرة أدخلها فيها. مشيتُ نحو الدائرة المنشودة ولقيتُ (أبا تركي) واقفًا عند الباب، ليتبسّم حين يراني ويقول:

«لا تقلق، ظهرت الحقيقة كاملة وصحة نظريتك... تفضل لتسمع»

ابتعدَ عن الباب لأدخل الدائرة، الكل حاضرون وموجودون... سوى شخصٍ واحد. تعجّبتُ من تغيبه للغاية لكني مشيتُ وجلستُ في مكاني بجوار المحقق (أديم)، وكأن الكل قد حفظوا مكانهم في المحاكمات والجلسات... الكل أحرار طليقون سوى (عاطف) الذي كان مصفّد اليدين بجوار العسكري.

آلمني قلبي على الشخص الوحيد المتغيّب، رغم عدم استدعاء المحكمة له إلا أنه كان دائمًا أول الحاضرين... فما الذي حصل؟ كانت الفتاة التي استقرت في فؤادي متغيبةً هذه المرة، أين ذات الزمام؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

الوصية

أقلعت الطائرة و(عاطف) في أوج خوفه من المرتفعات، وما صدّق أن استقرت الطائرة في الجو أخيرًا... ليتلاشى فزعه تدريجيًّا ويعود لطبيعته. نزع حزام الأمان ثم تنبّه للورقة المطوية في المقعد الذي بجواره، والذي جلسَ فيه أخوه (مناور) قبل أن يغادر غاضبًا. فتحَ الورقة سريعًا ومرّت عيناه خلال السطور المكتوبة:

«أعتذر عن معرفتك بالأمر بهذه الطريقة يا أخي، لكني لو أخبرتك لما رضيت ولمنعتني وحبستني في إحدى المصحات... في هذه الرسالة وصيتي الأخيرة لك ووداعي للأبد فلن تراني بعدها. لم أعد أطيق الحياة ولم أطقها منذ خرجتُ لها، وبعد ما فعلوه بي لن أتحمل فكرة أن أحدهم قد مس شرفي... ولن أعيشَ حياةً يكرهني فيها الجميع ويبغضونني. ستجدني في الحمام الخلفي وليسَ بأحسن حال على ما أعتقد. أريدك أن تلصق التهمة بأيٍّ ممن هددناهم أو كنا سنهددهم، أريد أن أضعهم تحت سيف القصاص بأي طريقة... ستجد السكين بيدي دون بصمات. خذها وضعها بحقيبة أيٍّ منهم، ولن أخبرك بما ستفعله بعدها فأنا أثق بك. أعتذر عن معرفتك بالأمر بهذه الطريقة،

تستحق وداعًا لائقًا أكثر من مجرد ورقة ولو كُتِبَت بخط يدي... لكن تذكر أني لم أحب أحدًا في هذه الحياة سواك فقد أحببتني حبًا غير مشروط... على نقيض بقية البشر.

وداعًا أخي الحبيب (عاطف)، احمل وصيتي في قلبك وطبّقها حتى الرمق الأخير»

هرعَ للحمام الخلفي ليتحقق من الموضوع، فوجد أخاه جالسًا على الكرسي ورأسه للأعلى... وقد غرس خنجرًا في رقبته اليمنى لا تزال الدماء تقطر منه. لم يعلم أيحتضن أخاه أم يبدأ بتنفيذ وصيته! تضاربت المشاعر داخل عقله وفؤاده وهو يرى أخاه بتلك الحالة، فتساقطت دموعه وهو يقول بكل حرقة:

«رحمك الله، لم يقدروك ويعرفوا قيمتك يا أخي»

اشتعلَ داخله حس الانتقام وقتها، فوجدَ قفّازًا قد تركه له أخوه المنتحر... ليستطيع حمل السكين وزرع الدليل في حقيبة أي أحد. أخرجَ السكين من عنق أخيه محاولًا كتمَ دموعه قدر المستطاع، لتسيل الدماء أكثر على ملابس القتيل. نزعَ القفاز الذي كان يلبسه (مناور) وحمله معه، ذلك القفاز الذي لبسه الضحية حتى لا تكون بصمات يده على السكين. حرص أشد الحرص ألا تتلطخ ملابسه بالدماء وكم كان ذلك صعبًا مجهدًا في ذلك الحمام الصغير. لفّ السكين بالكثير من

المناديل الورقية في الحمام، وحين تيقن من عدم إمكانية تسرب الدماء منها وضعها في جيبه... وغادر الحمام وقلبه يحترق حزنًا على أخيه الذي كان هو سببًا في إقدامه على الانتحار بشكلٍ أو بآخر. أغلق الباب بإحكام خلفه وتحقق من عدم وجود أحدٍ رآه، ثم مشى متصنّعًا الهدوء وداخله يغلي... وصل لمقعده وجلس والقفازات لا تزال تغطي يديه.

كان متلثّمًا بشماغه طوال الوقت، متلفّتًا كالمجنون بتلك الطائرة التي نام معظم ركابها... وتحيّن فرصة ذهاب الكاتب للحمام. فهرعَ للكابينة التي تعلو مقعده ورأى حقيبةً واحدة ظنّ أنها تخصه دون أن يتيقن، أنزلها وفتحها سريعًا... نزع المناديل الورقية عن السكينة وأزال بقاياها الملتصقة ثم رمى السكين وأغلق الحقيبة بسرعة.

لم يمتلك الوقت ليتحقق إذا ما رآه أحد، أعاد الحقيبة للأعلى بمكانها وجلس بمقعده... وقلبه لا يزال يحمل الكثير من الحزن والغضب والحقد حتى بعد أن نفذ وصية أخيه. هو نفسه لا يعلم كيف سيطر على أعصابه وقتها، فلم يكن مستعدًّا أبدًا لتلك المهمة... لكن الثأر أخذه بعيدًا بقدراته وأثبت له أنه قد يصنع المستحيل.

رفعَ رأسه الملثم ليرى اكتشاف الجثة من قبل الكاتب، ظنًّا من ذلك الكاتب أنه أول من رأى الجثة... وهو لا يعلم بالقادم من مصائب.

الوقت الحالي...

الجلسة الأخيرة

كان يقف على المنصة وهو يحكي ما حدث مع أخيه، وبمجرد وصوله لجزء الرسالة التي تركها تساقطت الدموع على خدي... رغم كل ما فعل (مناور) من مصائب إلا أن حاله كان محزنًا منذ عرفته. لا أحد يستحق أن يُعامل بتلك الطريقة التي عامله الجميع بها، حتى أنا كنتُ أتضايق منه كثيرًا لكني حاولتُ مجاملته قدر الاستطاعة... ومن كان يعلم أن المسكين يعاني من الاكتئاب الحاد؟ بعيدًا عن المشكلات التي كان يفتعلها معي بخصوص الفتاة التي أحبها أيما حب، (شوق) الحنطية التي تميل للسمرة... تلك التي أذهبت عقله وعشقها بجنون واستعد لفعل كل شيء لأجلها.

كان (عاطف) يتحدث بحرقةٍ وأسًى، وفي عينيه الكثير من اللوم على كل من كره أخاه... وفي قلبه الكثير من الحقد علينا كلنا... ومن يلومه في حب أخيه والدفاع المستميت عنه؟ حكى عن كل شيء يخص التهديدات التي بعثها للجميع، وكيف استطاع التملص والهرب من مبنى الاحتجاز... وكان عندي تساؤل واحد... كيف استطاع المحقق معرفة ما حدث؟ كيف اعترف (عاطف) بكل ذلك، وبين ليلةٍ وضحاها؟

بتلك الجلسة وقفَ جميع من كانوا على متن تلك الطائرة للشهادة، بمن فيهم أنا... كلٌّ سُئل من قبل المحامية (مجد) والمدعي العام مختلف الأسئلة. قاربت الجلسة على الانتهاء، حين صمتَ الجميع للاستماع لحكم القاضي... الذي نظر للأوراق أمامه مفكّرًا بعُمق قبل أن يقول:

«يتم تأجيل الحُكم للجلسة القادمة، مع الأمر باستمرار حبس المدعو (عاطف بن...) وحبس كلٍّ من (رويد بن...) و(ماري...) و(نيكولاس...) و(عصام بن...) و(روان بنت...) و(فراس بن...) حتى الحكم عليهم لشروعهم في الابتزاز والتهديد بالقتل... وتحويل ملف القضية من جريمة قتل لانتحار»

غادرَ الجلسة وقد صرّحَ بما أفرحنا جميعًا وبرأنا من كابوس القتل المرعب، من كان يتوقع أن لا وجود للقاتل الذي أرهقنا بالبحث عنه؟! سُحِبَ (عاطف) من قبل السجّان وقد أكلنا بعيونه الحاقدة، ذلك اللعين الذي كان سببًا في انتحار أخيه وجرّه لتلك الدوامات بعد أن كان موظفًا مسكينًا... ليرغب بتوريطنا بجريمةٍ لم تُرتكَب أصلًا!

اتجه الكثير من العساكر لإلقاء القبض على طاولة العار، الذين استسلموا وانصاعوا دون مقاومة لرجال الأمن... وأعطيتُ (رويد) ابتسامةٍ لعينة منتصرة... لطالما مقتَ قلبي ذلك الأرعن!

«مباركٌ البراءة للجميع»

قال (أبو تركي) وهو يمشي نحونا بوجهه الذي أنزل الله عليه السكينة والقبول، ليمد يده لمصافحتي بينما وقفتُ بجوار (شوق) والمحامية (مجد) ومحققنا (أديم)... صافحتُهُ بحرارة وشددتُ على يده وأنا أسأله:

«كيف توصلتَ لما توصلت إليه؟»

غمزَ لي المحقق وهو يفلت يدي ويقول:

«آهٍ يا كاتب الجريمة والغموض، مثلك يعلم. يتقهقر أعتى المجرمين وأشرسهم تحت الضغط والتحقيق والاستجواب الشديد، وإن لم يتقهقروا فسيخرجُ منهم تفصيلٌ صغيرٌ بسيط يدل على الحل... فما بالك بمبتزٍّ نتن؟ ضغطنا عليه ولعبنا بمشاعره تجاه نقطة ضعفه الوحيدة في الحياة، أخيه الراحل رحمه الله... أصررتُ على قصة الانتحار وهو يترجاني بالصمت حتى وقع»

انبهرنا جميعنا بالمحقق الذي أتى بالبشارة بين ليلةٍ وضحاها، قرر المغادرة فسألتُهُ سؤالًا وداعيًا لأني أعرف أني لن ألقاه مجدّدًا... ولا أريد أن ألقاه:

«كيف كانت ليلة الأمس بالله عليك؟»

ضحكَ وهو يلتفت ثم قال:

«لا تسأل يا حضرة الكاتب، أراكم في مكانٍ أفضل على خير»

ودعتُهُ وأنا أبتسم:

«نراك على خير»

تذكرتُ سؤالًا مهمًّا بعد مغادرة (أبي تركي) فألقيته على المحقق (أديم) بجواري:

«ماذا عن السكين، كيف أدخلها (رويد) للطائرة رغم تفتيش المطارات الشديد؟!»

أجاب بنصف ابتسامة:

«الفساد غالبًا هو ما جعله يصعد على متن الطائرة بالسكين، سيحققون معه في الأمر حتى يخبرهم باسم رجل الجمارك الذي تساهل معه ذلك اليوم... أو الطريقة التي أدخلها بها أيًّا كانت. ولا تخف فلن ينجو أحدٌ من عقوبة الفساد والإفساد»

غادرَ المحقق (أديم) ليلحقَ زميله بعد أن ودعني وهنأني، وقد أُجيبت كل أسئلتي تجاه ذلك اللغز المرعب.

شخصٌ واحدٌ وددتُ مشاركته فرحتي تلك، الشخص الوحيد الذي وددتُ مشاركته خبر البراءة وانتهاء ذلك الكابوس اللعين...

ذات الزمام. تلك الفتاة التي ما أن يأتيني خبرٌ جميلٌ وبشرى، أهرعُ لمشاركتها وأفرحُ بإخبارها أكثر من فرحي بالخبر ذاته... حين أرى سعادتها لسعادتي وفرحها لفرحي وفخرها بأبسط إنجازٍ يحدث في حياتي. خرجتُ من دائرة المحكمة وأخرجتُ هاتفي، لم أحتج للبحث عن رقمها فقد كان بقلبي قبل أن يكون في أحدث سجلات الاتصال... اتصلتُ عليها ووضعتُ السماعة على أذني.

لم أعتد أن أستمع للرنّات، فقد كنّا نجيبُ بعضنا البعض سريعًا خلال لحظة... ومع كل رنّةٍ ينبض قلبي بعنف ويعطيها ألف عذر على عدم الرد. انقطع الخط دليلًا على عدم الرد، دخلتُ لأرسل لها رسالةً فلم أرَ صورةَ عرضها الجميلة... تلك الصورة التي كان يطمئن قلبي كلما رأيتها. ما الذي حدثَ؟ لِمَ أزالت الصورة وقد كانت تعشقها، ومن المستحيل أن تغيرها أو تزيلها! لعلها مشكلةٌ بالشبكة أو بجهازي، لعلها قررت تغييرها لأن صورةً أخرى أعجبتها... أبى قلبي أن يضع ذلك الاحتمال المشين.. أنها قد حظرتني.

لم أكُن لأجلس مكاني فقد كنتُ فرحًا جدًّا وقررتُ السفر للمدينة التي تسكن فيها، ومن لحظتها ودون العودة لشقتي أو تغيير ملابسي... وجدتُ نفسي أسلكُ خط السفر وأقرأ الدعاء. لا أتخيل حجم فرحتنا

أخيرًا، وقد سامحها قلبي على كل ما فعلته. وكأنه كان ينتظر انتهاء الكابوس ليستطيع استيعاب كل ما حوله، رأيتُ الحياة كما كانت بالسابق... مليئةً بالألوان بعد أن كانت بالأبيض والأسود لفترةٍ طويلة.

***

وصلتُ للمدينة الجبلية التي كنا نقطن فيها معًا، ثم انتقلتُ أنا بحكم عملي وبقيت هي حتى نتزوج وتنتقل معي. اتجهتُ لبيتها مباشرةً وكلي شوقٌ ولهفةٌ للقياها، أوقفتُ سيارتي أمام بيتها... وهرعتُ لأرن جرس الباب كما فعلتُ دومًا. فتحَ لي أبوها الباب ومعه ابن أختها الصغير، صافحتُهُ وقبلتُ خديه ورأسه... واستغربتُ من فعلته فلم يتزحزح عن الباب ليسمحَ لي بالدخول.

«أريد أن أحدثك في موضوعٍ يا ابني»

هززتُ رأسي وأنا أتعجّب من أسلوبه الرسمي الجاف، أدخلني للبيت وجلستُ معه ليقول:

«أعلمُ أن ما سأقوله صعبٌ عليك وعلينا، لكنه النصيب كما تعلم. (أريج) فسخت الخطوبة وقد قررت وقرارها نهائي لا رجعة فيه، ولا تريد أن تراك مجدّدًا أو تسمعَ منك حتى لتغيير قرارها... ولو لم تطلب

هي مني ذلك وتلحّ عليّ ألا تراها لوجدتها جالسةً معنا الآن. تركت لك هذه الرسالة لتقرأها»

كان يختنق وهو يتحدث، ولم يعلم عن صدمتي واختناقي آنذاك... ولو أن المجتمع لم يجعل بكاء الرجال عيبةً لتساقطت دموعي كالأطفال. فالحُب هو الشيء الوحيد الذي يحول أقسى الرجال، لأطفال قد يؤذي مشاعرهم منعهم من حضن أو قبلة... الحُب يجعل منّا أطفالًا ونحن لا نعلم. ناولني الرسالة وعقلي لا يزال غير مستوعبٍ لما يحصل، ومعها خاتم الخطوبة وكأن عودته لي كانت تهمني... وضعتُ الخاتم جانبًا وفتحتها... وتمنيتُ لهذه اللحظة لو أني غادرتُ ولم أفتحها ولم أعرف سبب انفصالها:

«(عثمان)، أعلمُ أن انفصالي برسالةٍ لا يليق بحُب كحبنا... لكني مرغمةٌ على ذلك فأنا أعرف جيّدًا سحر عينيك الذي قد يغير قراري. كان أقسى أساسٍ بُنِيَت عليه علاقتنا هو الثقة، وهو الذي جعل علاقتنا تستمر سنين عديدة... وبمجرد فقدان هذا الأساس فقدنا كل شيء. أنتَ فقدتَ ثقتك بي بعد غلطتي، ولم تعطِني فرصةً جيدةً للتحدث معك حتى... صددتني حتى أصبحَ صدّك قاسيًا للغاية غير نابعٍ من حُب... وأنتَ تعرف جيّدًا الصد النابع من حُب. كل ما كنتُ

أريده هو الفرصة للتحدث ولم أكُن لأبرر، أردتُ أن أتحدث معك فقط... وأنا أعلمُ حجم الخطأ الذي ارتكبت. لا أستطيع الاستمرار مع شخصٍ فقد الثقة بي، وفقدانك لها مرةً يعني فقدانك لها كثيرًا... أودعك وقلبي معك وأعلم أنه لن يكون مع غيرك أبدًا. أعلمُ أن قلبي لن يحب أحدًا كما أحبك، هذا إن استطاع أن يحب غيرك. كنتُ أنتقد أولئك الذين يستخدمون هذه الطريقة الغبية للانفصال، وها أنا أقوم بها... لأني أعلمُ جُبن عينيّ وقلبي حين رؤيتك لن يستطيعوا أن يقولوا ما كتبت. وداعًا (عثمان)، وداعًا حضرة الكاتب»

«هل أنتَ بخير يا بني؟ أنتَ على حالتك هذه منذ نصف ساعة تقريبًا»

سألني أبوها ليعيدني للواقع، وأي واقعٍ بدون ذات الزمام؟ نصف ساعة! يبدو أن حضرة الكاتب فقد القدرة على القراءة وكان يتهجأ الحروف، ليتحقق قلبه ألفَ مرة من معنى الكلمة والجملة... كطفلٍ تعلم القراءة للتو... ألم أقل إن الحُب يجعل منّا أطفالًا؟

أهذه النهاية؟ لكن قلبي لم يقبلها أبدًا! وقفتُ من مكاني وأنا أحمل الرسالة والخاتم وغادرتُ على عجل، وأغلقتُ الباب بعنف والرؤية أصبحت تحت الماء من دموعي التي أغرقت عينيّ... ومعها فؤادي الذي اختنق.

شعرَ قلبي بشعورٍ غريبٍ فجأة، رفعتُ بصري لإحدى نوافذ المنزل... ووجّههُ قلبي للنظر تلقائيًا لنافذة غرفتها التي يستحيل أن يفوتها. رأيتها تغرقُ جراء الماء المالح الذي أغرق عينيّ، فمسحتُ دموعي سريعًا لأراها تنظر لي بالدمع ذاته... وأنفها ذو الزمام قد احمرّ وعيناها البنيتان الواسعتان وحتى وجنتاها. التفّ وجهها الطويل ببطء، لأرى شعرها الأسود المائل للبني... يمشي بعيدًا بحزن وحداء على حبنا. بقيتُ أتأمل نافذتها كالأبله رغم أنها مشت بعيدًا، لكن فؤادي تمنّى أن تعود... فلم يشبع من رؤيتها ولن يشبع أبدًا. لعنك الله يا قلبي حتى تتوقف عن العمل، كيف سمحتَ لي أن أتجاهلها كل تلك المدة وكل تلك الأيام؟ كيف سمحتَ لي أن أفقد ثقتي فيها ولو قليلًا؟ وكيفَ ولِمَ وهل ويا رب، قلتُها في خلدي وأنا في حالة إنكارٍ تامة... رفقًا بقلبي يا رب.

بعد شهرين...

أحلام

تأملتُ مبنى شركة الطيران المهيب الفاخر، قبل أن أنزل من سيارتي وأنا واثقٌ من قراري تمام الثقة. مشيتُ لهم بكامل تأنقي وبثوبي الرسمي وشماغي، وكل خطوةٍ لي على الإسفلت تشككني بقراري قليلًا... ثم أتذكر كل شيء وأعود لعقد العزم. دخلتُ المبنى واستعملتُ بطاقتي للدخول، ففُتِحَ قفل الباب واجتزته سريعًا... محاولًا الفرار من لقاء أي موظف يعرفني فلا طاقة لي بالحديث مع أحد. دخلتُ غرفة الاجتماعات وانتظرتُ قليلًا حتى دخل الشخص المنشود، وبيده مجموعة من الأوراق الرسمية... صافحني وجلسَ ليسأل سؤاله المعتاد:

«هل أنت واثقٌ من قرارك يا (عثمان)؟»

أومأتُ له وسحبتُ الأوراق منه سريعًا دون تردد، فقال كلامًا أعرفه:

«أحتاج منك التوقيع على هذه الأوراق»

كنتُ أوقعها له وهو يتحدث، بكل برودٍ وسرعة فقد رغبتُ بالخروج بأسرع وقتٍ من ذلك المبنى الكئيب... على الرغم من فخامته وحجمه وتنظيمه.

«أتمنى لك التوفيق...»

بكل بجاحةٍ مني لم أدعه ينهي كلامه، فقط ربتُّ على كتفه وغادرتُ الغرفة على عجل... بعد أن نفذتُ قرارًا كنتُ أفكر فيه منذ انتهت المحاكمة... الاستقالة من وظيفة أحلامي. تلك الوظيفة التي لم أعد أستطيع تحملها بعد كل ما حدث، وصبّرتُ نفسي في كل رحلةٍ أن الوضع سيتحسن وأني أستطيع تخطّي ما حصل... فالوقتُ سيعالج كل شيء.

الوقتُ سيعالج كل شيء، تلك العبارة الكاذبة التي سمعتها في كل مصيبةٍ تحدث للإنسان... الإنسان المسكين الذي سينتظر وينتظر وينتظر دون أن يعالجه الوقت بل يزيده همًّا. في كل رحلةٍ أصعد فيها كمضيف طيران، كل ما أراه هو (عاطف) الملثّم وهو يحمل السكين ليضعها في حقيبتي، و(مناور) المنتحر المضرج بدمائه في الحمام كلما دخلتُهُ، وطاقم المقصورة الذين حاولوا تهدئتي ذلك اليوم... والذين يقبعون في السجن الآن لإنهاء محكوميتهم. لم أعُد أحتمل وظيفة أحلامي التي كنتُ أقومُ بها يومًا ما بكل حب، والآن أرتعد للصعود للطائرة حتى... فماذا عن العمل فيها؟

ركبتُ سيارتي وانطلقتُ بها لشقتي، وقلبي يؤلمني أيما ألم على كل

ما قاساه خلال الفترة الماضية... وكم كسرته الحياة كسرًا لا يستطيع تحمله. والحمدلله أن المبنى قريبٌ منها وإلا لوجدتُ نفسي هائمًا في الطرقات من أفكاري، فهي التي تتحكم بعقلي في الآونة الأخيرة. التفاتةٌ لليمين ثم للشمال، ووصلتُ للعمارة... أوقفتُ سيارتي ولم أجتهد في ذلك الوقوف فقد كان فوضويًا جدًّا وزاد الشارع ضيقًا فوق ضيقه. دخلتُ لشقتي واتجهتُ لمكتبي، فتحتُ جهاز (الآيباد) ودخلتُ على تطبيق الكتابة... لأفتحَ ملفًّا جديدًا تحت اسم (طائرة ٣:١٥ فجرًا).

أنا متيقنٌ أن الكتاب سيثبت شيئين فقط، أني خسرتُ وظيفة أحلامي وفتاة أحلامي... وكل ذلك بسبب طائرة الثالثة والربع فجرًا.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

تمت بفضل الله